PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

مشرّدٌ بلا خطيئة

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

حقوق الطبع محفوظة

الطبعة الأولى
١٤١٠هـ - ١٩٩٠م

دار القبلة للثقافة الإسلامية
المملكة العربية السعودية - جدة - ص.ب: ١٠٩٣٢ - الرمز: ٢١٤٤٣ - ت: ٦٦٥٢٤٠٦ / ٦٦٥٩٩٥١ / فاكس: ٦٦٥٩٤٧٦

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

مشردٌ بلا خطيئة

تأليف

الدّكتور

محمد عبده يماني

دار القبلة للثقافة الاسلامية

جــدّة

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

بسم الله الرحمن الرحيم

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

مشرد بلا خطيئة

دق جرس المدرسة، مؤذناً بانتهاء دروس ذلك اليوم. . .

وخرج الأطفال يتصايحون في براءة، وقد حملوا كتبهم وكراريسهم، وراحوا يتفرقون إلى مختلف الإتجاهات، عائدين إلى منازلهم. . . في بلدة «عين كارم» التي لم تكن تبعد عن القدس أكثر من ثمانية كيلومترات. . .

كان الأطفال ـ شأنهم في ذلك شأن كل أطفال العالم ـ يشعرون بأنهم أخوة أكثر مما هم أصدقاء، لا سيما وأن بلدتهم صغيرة، وكان أهلها يعرفون بعضهم، وفيهم من ارتبط بقرابة أو مصاهرة. . . كانت المدرسة تضم المسلم، والمسيحي، ويهوديين إثنين فقط، هما «يوري» و «راشيل». . . ولدا «حاييم» تاجر الزيت الذي اعتاد أن يشتري، كل موسم، إنتاج الحاج أبو ابراهيم من زيت الزيتون الفاخر، والذي تربطه بالحاج صداقة قوية، وعمل مستمر، كما كان الحاج يبادله صداقة بصداقة ويعامله كأنه واحد منهم. . .

لقد كانوا جميعاً فلسطينيين، يشعرون بالإنتماء إلى

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

الأرض الواحدة، رغم أن «حاييم» لم يكن قد مضى عليه أكثر من ربع قرن وبضع سنين منذ أن هاجر إلى فلسطين، في أعقاب الحرب العالمية الأولى، ووضع فلسطين تحت الإنتداب البريطاني...

ولكن أحداً ما، من الفلسطينيين الأصليين، لم يحاول أن يسيء إلى حاييم بكلمة أو إشارة، فهم يعرفون الظروف التي هاجر فيها، ويعرفون أنه إنسان مسالم، لم يتحدث في السياسة قط، ولا حاول أن يعلق بحرف، سلباً أو إيجاباً، على الإضطرابات التي كانت تجتاح فلسطين، والصراع ما بين العرب واليهود، والثورات التي قام بها العرب، والأعمال التي قام بها الإرهابيون اليهود.. كل ذلك لم يكن يعني «حاييم» ـ تاجر الزيت ـ في شيء.. وظل يمارس حياته بصورة طبيعية تماماً في «عين كارم» متعايشاً مع الآخرين، الذين كانوا، كما هي شيمتهم، يحرصون على الحفاظ على شعوره، وحمايته خلال الأحداث والإضطرابات التي كانت تتصاعد يوماً بعد يوم، مع اقتراب موعد الجلاء البريطاني عن فلسطين، وتصاعد عمليات العنف من الطرفين العربي واليهودي..

إلا أن «عين كارم» كانت ـ حتى ذلك الحين ـ بعيدة عن الأحداث..

صحيح أن بعض أهلها كانوا يساهمون في الأعمال

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

الفدائية بصورة سرية، ويكدسون الأسلحة التي يستولون عليها خلال معاركهم الخاطفة مع الإنجليز واليهود، إلا أن نار القتال لم تصل ـ بعد ـ إلى البلدة التي كانت على مسافة ثلاثة كيلو مترات ليس غير من قرية «دير ياسين» التي احتلت ـ بعد ذلك ـ مكانة ملحوظة في سجل الإعتداءات الوحشية الإسرائيلية.

وسار الأطفال الثلاثة ابراهيم ويوري وراشيل معاً، متشابكي الأيدي، متجهين إلى دار أبو ابراهيم، فاليوم سيزور «حاييم» صديقه الحاج أبو ابراهيم ويشتري منه إنتاجه من الزيت، وقد جرت العادة ـ في مثل هذه المناسبة ـ على أن يستضيف الحاج أبو ابراهيم زبونه حاييم وولديه، فيأكلون ويشربون، ثم يقضي الرجلان شطراً من الوقت في الحديث والسمر، بينما ينهمك الأطفال في ألعاب لا تنتهي، وأصواتهم ترتفع في هدأة الليل..

وبدا حاييم مهموماً كثير التفكير في زيارته هذه.. ولاحظ عليه الحاج أبو ابراهيم ذلك وسأله عن السبب فقال له بلهجة كلها تشاؤم:

ـ لست أدري يا حاج.. الأمور تسوء يوماً بعد يوم.. والعنف يتصاعد من جميع الأطراف.. وأخشى أن يأتي يوم نضطر فيه للإفتراق..

ونظر إليه الحاج بدهشة صادقة، وقال:

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

ـ نفترق؟.. لم؟.. لقد عشنا عمراً مديداً معاً في هذه البلدة.. وأنت تعلم أننا لم نمد يد الأذى إلى أي يهودي ممن كانوا يقيمون في فلسطين منذ سنوات طوال.. وأنت واحد من هؤلاء.. فهل حدث لك ما يزعجك؟..

ـ لا.. والحق أن أهل البلدة يعاملونني أحسن معاملة، ويتعاملون معي بصدق وأمانة وإخلاص، ولكنني أتساءل.. إلى متى يدوم ذلك؟.. ومتى تصل نار القتال إلى عين كارم؟..

ـ ما هذه الأوهام يا رجل؟.. إنك تعرف الأخلاق العربية جيداً..

ـ أجل.. ولكنني أعرف أيضاً أخلاق قومي.. أعني.. الأخلاق اليهودية..

ـ ماذا تقصد؟..

ـ لست أقصد أكثر مما أسمع وأرى.. إن زعماء اليهود يعلنون تصميمهم على إقامة دولة يهودية في فلسطين..

ـ دعهم يقولون ما يشاؤون..

ـ وهم يلجأون إلى العنف في محاولة تحقيق مأربهم هذا.. ألم تسمع بالأعمال الإرهابية التي تقوم بها عصابات «الهاجانا» و «شتيرن» و «الأرغون»؟.. إنها تعيث في فلسطين فساداً ولا ينجو من شرها حتى جنود السلطة البريطانية الذين

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

يحمونها.. بل لقد علمت أنهم نسفوا السفارة البريطانية في روما..

ـ وأنت.. ما رأيك في هذا؟..

ـ لقد قلته لك.. إنني أخشى، وأتخوف، من أيام عصيبة مقبلة، يوم يخرج الإنجليز من فلسطين ويدعون العرب واليهود وحدهم وجهاً لوجه...

ـ إسمع يا صديقي.. هذا البلد هو بلدي.. إنني ما عرفت لنفسي، ولا لعائلتي، عبر مئات سلفت من السنين سواه.. وهذه الأرض أرضي.. اشتراها جدي الأكبر بعشرين ليرة ذهبية عثمانية.. وعمل فيها من بعده جده وأبي ثم انتقلت إليّ.. وهأنت تراني أعطيها من جهدي وعرقي كل شيء على مدار العام.. وإنني باقٍ فيها ما أراد الله لي أن أبقى.. فإذا كان هناك، عندكم، من يدعي غير ذلك، فليس له عندي شيء..

ـ إنك لا تفهمني يا أخي الحاج.. إنني إنما أروي لك آرائي، وأعرض لك مخاوفي من واقع الأحداث التي تجري من حولنا، وليس من واقع أن هذه أرضي أو أرضك..

ـ أرجوك يا حاييم دعنا من هذا الموضوع.. ولنتكلم فيما هو أهم..

ـ يبدو لي أنك لا تشعر بما يدور حولك من أحداث..

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

ـ بلى.. أنني أشعر.. ولكنني لا أسمح لها بأن تدع الفزع يتملكني..

ـ في رأيي أن تهجر أرضك ولو إلى حين.. إنك تعلم أن هناك مستعمرتين يهوديتين تقومان بالقرب من بلدتنا عين كارم.. هل تظن أنهما ستقفان مكتوفتي الأيدي إذا ما خرج الإنجليز وبقي العرب واليهود وحدهم؟..

ـ كأنك تريد أن تقول لي شيئاً..

ـ لقد قلته.. إنني أنصحك بأن تهجر عين كارم.. إلى حين تستتب الأمور ويوضع للإضطرابات حد.. أنت تعلم، ولا ريب، أن الأمم المتحدة ومجلس الأمن مهتمان كل الإهتمام بهذا الموضوع..

ـ قلت لك أن هذه أرضي.. ولن أتزحزح منها.. فهل لك أن تتحدث في موضوع آخر؟..

والحق أن الحاج أبو ابراهيم شعر بما يشبه الإلهام، أن شيئاً ما قد حدث في نفسية صديقه القديم «حاييم».. شيئاً ما لا يدري ما هو على وجه التحديد.. فهو يعرف حاييم منذ سنوات وسنوات.. صحيح أنه يهودي.. وأنه دخل البلاد قبل زمن بصورة غير شرعية، إلا أنه ـ مع هذا ـ لم يشعر نحوه بأي مقت أو كراهية.. ولم يكن هذا شعوره وحده.. كان شعور أهل البلدة العرب جميعاً، وفيهم المسلم وفيهم

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

المسيحي، فهم لم يسمحوا لأنفسهم، قط، بأن ينظروا إلى حاييم نظرة خاصة.. بل هم قبلوه كواحد منهم، ووقف الأمر لديهم عند هذا الحد..

ترى ماذا يريد حاييم أن يقول لي؟، تساءل الحاج في داخله، وهو يرى حاييم يتناول طعامه بهدوء، ومع أن وجهه لم يكن ينم عن شيء، إلا أن الحاج ـ بإلهامه ذاك ـ شعر بأنه لم يعد يطمئن إلى جليسه وضيفه، وأن إصراره على الحديث عن الهجرة، والإضطرابات القائمة، والأيام العصيبة المتوقعة، إنما هو حديث مهيأ سلفاً، وليس مجرد خاطر طرأ له في حينه..

وعادت إلى ذاكرته أيام أبيه المرحوم، لقد كان أبوه يقول في جلساته مع أهله وأصدقائه، أنه لم ير قوماً لا يمكن الثقة بهم، والإطمئنان إليهم كأولئك اليهود.. لقد دخلوا فلسطين متسللين، وأقاموا فيها يبنون مستوطنات ذات طراز غريب لم تعهده فلسطين من قبل، انها ـ كما كان أبوه يقول ـ قد عاشت مئات السنين في سلام ووئام.. وفيها أهلها من المسلمين.. وفيها أهلها من المسيحيين من جميع المذاهب دون استثناء.. وفيها أقلية من اليهود.. فما حاول أحد أن يعزل نفسه، ويحيطها بالشكوك والريب سوى اليهود، إنهم يغلقون على أنفسهم أسواد مستوطناتهم فما يعلم أحد شيئاً عما يدور فيها.. لقد سمعت أنهم يبنون مخابىء تحت الأرض، وأنهم

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

يخزنون المؤن والأسلحة والأموال فيها.. ماذا يريدون؟.. ماذا يهيئون.. بم يحلمون؟.. أصارحكم القول، يا أخواني، أنني غير مطمئن إليهم..

ولم يكن أحد من سامعي أبيه يعترض على قوله هذا، فقد كانوا جميعاً يلاحظون، ما يلاحظ، ويقلقون كما يقلق، ويتساءلون عما يريد اليهود كما يتساءل، فكانوا ينتهزون أية فرصة للصدام مع اليهود، حتى إذا مالت الكفة إلى صالح العرب جاءت القوات البريطانية بدباباتها ومصفحاتها وجنودها، تنصر اليهود، وتحول دون اقتراب العرب من المستعمرات اليهودية وعالمها الخفي..

وإذ وصل الحاج أبو ابراهيم في أفكاره إلى هذا الحد، شعر بالقلق يتسلل إلى نفسه، وشعر ـ بل تأكد ـ من أن أسئلة حاييم واقتراحاته وتلميحاته لم تكن عفو الخاطر أو بنت ساعتها، بل إنها مدبرة، ومهيأة، وأن هذا اليهودي الذي كان يعتبره صديقاً وزميلاً وابن وطن طول حياته، لا يبادله صفاء نيته بمثلها، وأنه يخفي غير ما يظهر، وأن السنوات الطوال التي قضاها، وهو اليهودي الوحيد، في عين كارم، لم تفلح ـ على ما يبدو ـ في بناء جسور من المحبة والتفاهم والألفة بينه وبين أهل البلدة رغم حسن معاملتهم له..

وانتبه أبو ابراهيم من أفكاره على صوت حاييم يقول له بصوت ضاحك، ولكنه في برودة الثلج:

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

ـ ماذا بك يا حاج؟.. إلى أين وصلت في أفكارك.. نصف الألف خمسمائة كما يقولون..

ورفع أبو ابراهيم رأسه، وسدّد نظره إليه، وركز عينيه على شفتيه الباسمتين، فشعر بالقشعريرة تسري في جسده، وأنه يجالس ذئباً متنكراً في تلك الملابس التي لا تختلف في شيء عن ملابس سواه من أهل البلدة، عدا سوالفه الطويلة وقبعته السوداء..

وتضاحك أبو ابراهيم، ورد على حاييم بعبارات قصيرة.. ولكن القلق الذي انتابه لم يتخل عنه، بل لقد زامله ـ بعد ذلك ـ طوال ما تبقى من حياته...

* * *

في الجانب الآخر من البيت، كان الأولاد الثلاثة قد تعبوا من اللعب والجري في أرجاء المزرعة، فانتحوا مكاناً أسفل إحدى الشرفات المطلة على المزرعة، وراحوا يتحدثون..

قال ابراهيم:

ـ غداً هو يوم الجمعة.. سأذهب مع أبي إلى القدس لأداء صلاة الجمعة في المسجد الأقصى.. هل تأتي معنا يا يوري؟..

ورفع الطفل اليهودي حاجبيه بدهشة وهو يجيب:

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

ـ أنا؟.. وما أصنع معك ومع أبيك؟.. إن يوم الجمعة هو يومكم أنتم.. أما نحن فيومنا هو يوم السبت..

ولم يفهم ابراهيم ما قصد إليه يوري تماماً، فقال له:

ـ ماذا تعني بقولك يومنا ويومكم؟.. ألسنا جميعاً أبناء وطن واحد؟..

وتبادل الطفلان اليهوديان نظرة خاصة ثم قال يوري بارتباك:

ـ أنت صديقي يا ابراهيم.. وأنا أحبك.. وأظنك تعلم ذلك..

ـ إنني لم أسألك عما إذا كنت تحبني أم لا.. ولكنني أسألك.. ألسنا أبناء وطن واحد؟.. إنك سمعت المدرّس وهو يعرّف لنا الوطن فيقول أنه الأرض التي نعيش عليها معاً.. والسماء التي نحيا تحتها معاً.. والحياة التي نقضيها معاً.. ألسنا، نحن، كذلك؟..

فقال يوري بعد تردد يسير:

ـ أجل.. أجل.. هو ما تقول..

وتدخلت راشيل في الحديث فقالت لابراهيم:

ـ ولكنكم تعبدون رباً غير الرب الذي نعبده نحن..

وبدت الدهشة الشديدة على وجه ابراهيم وقال:

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

ـ كيف هـذا؟.. صحيـح أنني مسلم وأنكم يهـود.. ولكننا، نحن المسلمين، نعتبر أن ربنا وربكم واحد.. هذا مذكور في القرآن الكريم.. وهو ما يردده أبي لي دائماً.. صحيح أنكم تتبعون ديناً آخر.. ولكن هذا لا يمنع من أن نكون كلنا فلسطينيين أليس كذلك؟..

وبدا الحرج على راشيل، فهي ـ على ما يبدو ـ كانت خالية الـذهن من أي جواب على تسـاؤلات ابراهيم، فقـد اكتفت بأن رددت ما يلقنها، وأخاها، أبوهما، من أنهم شيء آخر غير أولئك العرب، مسلمين كانوا أم مسيحيين.. وأن لأولئـك العرب دينـاً يختلف عن الـدين اليهـودي، وأنهم ـ بالتالي ـ اسرائيليون وليسوا فلسطينيين..

وقالت راشيل أخيراً:

ـ نحن.. نحن اسرائيليون..

فرد ابراهيم بسرعة

ـ إسرائيليون ديناً.. ولكنكم فلسطينيون موطناً.. كلنا فلسطينيون.. أليس كذلك؟..

ولم يجد الطفلان اليهوديان ما يجيبان به، وأزعجهمـا ترديد ابراهيم لقوله أنهم جميعاً فلسطينيون.. فهما لم يسمعا هذا التعبير من أبويهما أبداً.. بل ولم يسمعاه من أي يهودي ممن يزورونهم في المستعمرات القريبة من عين كارم..

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

واكتفت راشيل بأن قالت لإبراهيم:

ـ أنت يا ابراهيم صديقنا.. ونحن، كما قال يوري، نحبك.. فلندع هذا الحديث الذي لا نفهمه..

ويبدو أن ابراهيم قد شعر، هو الآخر، بأن جعبته من الحديث في هذا الموضوع قد فرغت، وأن هناك خللاً ما في هذا الحديث، فهو يردد ما علمه أبوه وما كان يتحدث به دائماً، ولعل الطفلين اليهوديين ـ قال ابراهيم لنفسه ـ يرددان أيضاً ما يسمعانه من أبويهما...

وقبل أن يفتح أحدهم فمه للحديث، أطل الأبوان من الشرفة، وراحا يناديان على الأطفال، فقد حان موعد عودة حاييم وولديه إلى بيتهم، كما نادى الحاج أبو إبراهيم على ولده..

وودع اليهودي مضيفه، وأمسك بيدي طفليه وغادر المكان، بينما وقف أبو ابراهيم يتابعه بنظراته، وولده ممسك بطرف ثوبه يهزه بيده ليلفت انتباهه إليه..

ونظر الأب إلى ولده متسائلاً وهو يستدير عائداً إلى داخل المنزل، وأوسع ابراهيم خطاه ليلحق بأبيه وهو يسأله بسذاجة:

ـ أبي.. أليس العم حاييم وولداه فلسطينيين؟..

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

ودهش الأب لهذا السؤال، فتوقف ونظر إلى ابنه مستغرباً وسأله:

ـ ما الذي يجعلك تسألني هذا السؤال؟..

وشعر الطفل بالخوف، فقد أحس بأنه قد ارتكب خطأ ما، فبلع ريقه، وتمتم بصوت خافت:

ـ لا شيء.. مجرد سؤال..

* * *

عندما عاد الحاج أبو ابراهيم من القدس، بعد أن أدى صلاة الجمعة في المسجد الأقصى، واجتمع إلى بعض الأصدقاء في المقهى، وابتاع بعض الحاجيات، كانت الأفكار تضج في رأسه كالبركان..

لقد سمع من أصدقائه في القدس أشياء رهيبة، تفوق كل ما كان يتصوره ويتخوف منه، بل وتفوق كل ما شهده منذ طفولته من أحداث الصراع بين العرب واليهود، ولم يستطع أن يبعد عن ذهنه صورة ابتسامة حاييم التي رآها فدبت في نفسه القلق، وراح يربط الأحداث ببعضها، ليشعر ـ من ثم ـ بالتشاؤم، وبأن هناك شيئاً ما يلوح في الأفق، شيئاً يختلف عن الماضي، ويستدعي ـ بالتالي ـ موقفاً.. ولكن ما هو هذا الموقف؟.. هذا ما لم يتمكن من تحديده وسط غليان الأفكار في رأسه...

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

وكما هي العادة في أمسيات الجمعة، تقاطر إلى بيت الحاج أبو إبراهيم عدد من جيرانه وأصدقائه، ليقضوا السهرة في الحديث والسمر، وتدخين «النارجيلة»، وأعدت لهم أم إبراهيم كعادتها مائدة حافلة، التف الرجال حولها، يأكلون ويسمرون، ويعلقون على الأحداث السياسية التي تدور في المنطقة..

ولاحظ صالح، وهو أقرب جيران أبو ابراهيم إليه، أن مضيفهم مشغول البال على غير عادته، وأن في نفسه شيئاً يريد أن يقوله، فصاح به ضاحكاً:

ـ هيه.. وحّدوه.. فيم أنت شارد يا أبو إبراهيم؟..

وانتبه أبو ابراهيم من أفكاره، وسدد نظرة غريبة لصالح ثم قال له متسائلاً ببساطة:

ـ ألا قل لي يا صالح.. أليس الإسرائيليون فلسطينيين؟..

وساد المكان صمت رهيب، فلقد كانت لهجة أبو إبراهيم تحمل الجواب على سؤالها وكأنه قد تعمد ذلك، وتبادل الرجال النظرات، ثم قال صالح متضاحكاً:

ـ تعني اليهود؟.. آه.. هذه مسألة فيها نظر..

ـ أريد أن أعرف جوابك..

وعلّق خليل على حوار صالح وأبو إبراهيم:

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

ـ ما هذه الأسئلة والأجوبة؟.. وهل يعقل يا حاج أنك لا تعرف جواب سؤالك؟..

ـ أريد أن أعرف..

ردد أبو إبراهيم عبارته بهدوء غريب لفت انتباه الحاضرين جميعاً، فلم يكن يبدو عليه أنه يمزح، بل كانت الجدية التامة مرتسمة على وجهه، وكأنه يعلق آمالاً عظيمة على سماعه للجواب، رغم أنهم كانوا واثقين ـ بطبيعة الحال ـ من أنه يعرفه..

وقال خليل بقلق:

ـ ماذا تعني يا حاج؟..

فعاد الحاج يقول بإصرار:

ـ لقد طرحت سؤالاً وأريد جوابه من أي منكم.. وسؤالي هو: هل الإسرائيليون فلسطينيون أم لا؟..

فقال صالح:

ـ ألم أقل لك أنها مسألة فيها نظر؟.. أولاً يجب ألا تقول «الإسرائيليين» وإنما قل «اليهود».. ثانياً.. الجواب هو أن اليهود الذين عاشوا في فلسطين منذ القديم هم فلسطينيون بالطبع.. خذ مثلاً صديقنا حاييم..

ولم يكد الحاضرون يسمعون اسم حاييم حتى انتبهوا

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

جميعاً إلى أنه لم يكن ـ هذه المرة ـ بينهم. . فتلفتوا حولهم بحركات لا شعورية، وقال صالح متسائلاً باستغراب:

ـ حقاً. . أين حاييم؟. . إنه لم يحضر هذه الليلة. .

وأجابه أبو إبراهيم:

ـ كان بالأمس هنا. . جاء يشتري موسم الزيت كعادته. .

ـ ولِمَ لمْ يأت هذه الليلة إذن؟. . يبدو أنك رفعت أسعارك يا أبو إبراهيم.

وضحك الجميع إلا الحاج أبو إبراهيم، فقد ظل وجهه على جموده وصرامته. .

وقال خليل:

ـ لعل الرجل مريض. . يجدر بنا أن نعوده. .

ـ قلت لك أنه كان هنا بالأمس. . إنه سليم معافى. . وليس به شيء. .

ـ لم لم يأت إذن؟. .

ـ هذا هو سؤالي. . . أو بالأصح. . هذا هو الجواب على سؤالي. .

ـ هللا أفصحت يا حاج؟. .

وأدار الحاج نظراته بين الحاضرين وقال لهم ببطء:

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

ـ يا إخوان.. بصراحة.. أنا غير مطمئن..

وارتسمت على وجهه، فجأة، ابتسامة مريرة وقال وكأنه يحدث نفسه:

وعبس الجميع، وكأنهم فهموا ـ الآن فقط ـ ما أراد أبو إبراهيم أن يقوله، فقال خليل بقلق:

ـ هل تشك في الرجل يا أبو ابراهيم؟..

فهز أبو ابراهيم رأسه في أسى وقال:

ـ يصعب عليّ ذلك.. إنها صداقة عمر.. لم نسىء خلالها للرجل ولم يسىء إلينا..

وتدخل في الحديث، لأول مرة، أصغر الحاضرين سناً وهو فتى يدعى «نمر»:

ـ هل يمكن أن تقول لي، يا عمي الحاج، متى أسأنا إليهم؟.. آويناهم، ورحبنا بهم في ديارنا.. وقاسمناهم أرزاقنا.. وتعاملنا معهم.. وكان الشر يأتينا دائماً منهم.. كان عليكم، وأرجو أن تسامحوني على هذا القول، أن تقطعوا رأس الأفعى قبل أن تشعر بالدفء والشبع والإطمئنان..

ورد عليه خليل:

ـ ومن قال لك أننا لم نفعل؟.. منذ بدء الإنتداب البريطاني ونحن نتصدى لهم.. وأنت لم تكن قد خلقت بعد

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

يا نمر، ولكن سل أباك.. سلنا نحن.. لقد كنا نقاتلهم ونقاتل أقوى امبراطورية على وجه الأرض.. وهم يعرفوننا جيداً ويعرفون طعم رصاصنا وقنابلنا وأحجارنا..

فرد نمر بثقة:

ـ كان يجب أن تستمروا.. كان يجب ألا تتوقفوا أبداً..

فهز أبو إبراهيم رأسه في حزن وقال:

ـ الحرب بالنظارات سهلة كما يقولون.. ولست أظن أن شعباً في الدنيا قاتل كما قاتلنا.. أو دافع عن نفسه كما دافعنا.. ولكن التكافؤ معدوم.. فإخواننا من عرب ومسلمين لا يقل حال معظمهم عنا سوءاً.. هذا تستعمره بريطانيا.. وذاك تحتله فرنسا.. والثالث تحت الاستعمار الإيطالي.. والرابع تحت الاستعمار الهولندي.. وغيره.. وغيره.. خليها على الله يا ولدي يا نمر..

فقال نمر وكأنه يعتذر:

ـ آسف يا حاج.. إنني أعرف ذلك.. ولكنني لا أطيق أن أرى المؤامرة تدبر أمام عيوننا دون أن نقاتل..

وبلهجة خطيرة قال أبو إبراهيم وهو يضرب بيده على المنضدة بقوة:

ـ سوف نقاتل.. وسوف نبقى في أرضنا أو.. أو نموت دونها..

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

وفي هذه اللحظة سُمع طرق على الباب، فالتفتوا جميعاً إليه، ورأوه يفتح، ودخل حاييم بقبعته السوداء المعروفة وهو يبتسم لهم ويقول:

ـ مساء الخير.. آسف.. لقد تأخرت عليكم...

وتبادل الجميع النظرات صامتين، فقد كانت اللهجة الطبيعية المرحة التي خاطبهم حاييم بها، تشعرهم بأنهم جميعاً فلسطينيون، وأنه إذا كان هناك يهود أشرار، فهناك أيضاً يهود طيبون، وها هو ابن بلدتهم حاييم من هؤلاء..

ورحبوا به جميعاً، فخلع قبعته وجلس، كما اعتاد أن يجلس في بيت أيّ منهم، مذ جاء إلى أرض فلسطين، وحتى تلك اللحظة..

قال إبراهيم الصغير لأمه وهي تتحرك في المطبخ بسرعة، لتعد طعاماً للضيف الذي جاء متأخراً:

ـ أماه.. ألست أنا وأنت وأبي، وأهل عين كارم كلهم، فلسطينيين؟..

فرفعت الأم حاجبيها باستغراب وقالت:

ـ ما هذا السؤال؟.. طبعاً كلنا فلسطينيون..

وعاد الطفل يسأل بإلحاح:

ـ وعمّو حاييم.. وولداه.. يوري وراشيل.. أليسوا أيضاً فلسطينيين؟..

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

فقالت الأم:

ـ يمكنك أن تعتبرهم كذلك.. لقد جاء عمّو حاييم منذ زمن ليس بالبعيد كثيراً.. ولكنه يعتبر على كل حال فلسطينياً..

وصمت الطفل برهة كانت الأم خلالها قد استكملت وضع الأطباق على صينية كبيرة، ثم سألها وهو يخشى غضبها:

ـ سؤال آخر.. سؤال واحد فقط..

فزفرت الأم بضيق، وتوقفت لتسمع سؤاله بعد أن همت بحمل الطعام:

ـ هات.. سل.. ماذا لديك أيضاً؟..

ـ سؤال واحد ليس غير.. لماذا قال لي يوري وراشيل أنهما اسرائيليان.. ولم يقولا أنهما فلسطينيان؟..

ولم تعرف الأم كيف تجيبه، لأنها ـ هي نفسها ـ لم تفهم مغزى السؤال، فحملت الطعام وهي تقول له:

ـ وما أدراني؟..

وفي تلك اللحظة اهتزت الأرض بانفجار هائل، فسقطت أطباق الطعام من يدي أم إبراهيم وصرخت برعب، بينما هبّ الرجال جميعاً بحركة واحدة، وخرجوا يستطلعون ما جرى..

وفي عتمة الليل رأوا شبحاً يتجه نحو ساحة القرية بسرعة

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

البرق وهو يصيح:

ـ اليهود.. اليهود..

ولم يكد يكمل نداءه حتى حدث انفجار آخر.. ثم تلاه ثالث.. ورابع..

ففتحت الأبواب جميعها، وخرج الناس وهم يحملون بنادقهم ومسدساتهم واتخذوا لأنفسهم متاريس كانت معدة سلفاً، بينما تسلق بعضهم سطوح المنازل، ليرفعوا الأغطية عن رشاشات ثقيلة كانت مموهة تحت تلك الأغطية..

وأضاءت عتمة الليل قنبلة مضيئة أطلقت من ظاهر البلدة، ولكنها كانت كافية لأن يرى أهالي البلدة كل ما حولهم، وأن يتخذوا مواقعهم ليبدأوا في الرد على النيران المنهالة عليهم من المستعمرتين الإسرائيليتين القريبتين..

وصاح صائح وسط أصوات القنابل والرصاص المتبادل:

ـ إنهم في بساتين الزيتون.. إنهم في بساتين الزيتون..

وفي الحال وجهت كل نيران أهل البلدة نحو بساتين الزيتون، بينما كانت نيران العدو تصب على كل مكان من القرية تقريباً، عدا منزل واحد هو منزل حاييم..

* * *

قبل أن يخرج أبو إبراهيم ليتخذ مكانه بين المدافعين،

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

اتجه بسرعة البرق إلى المطبخ حيث كانت أم ابراهيم تعد الطعام قبل بدء المعركة وصاح بها:

ـ انتبهي لنفسك.. وللطفل..

ثم استدار خارجاً وهو يحمل بندقيته وذخيرته، وغادر المنزل مع الآخرين..

وأما أم ابراهيم فقد كانت موزعة النفس بين ولدها ابراهيم الذي جمد مشدوهاً في مكانه لا يدري ما يفعل، وبين أن تخرج إلى المعركة كما اعتادت معظم نساء البلدة أن يفعلن، وقبل أن تحزم أمرها، إذا بها ترى ابراهيم، يتحرك بسرعة متجهاً نحو باب المنزل الخلفي، وهو الباب المتصل بالمطبخ، ويطلق ساقيه للريح، بعيداً عن المنزل..

حدث ذلك في ثوانٍ معدودات، لم تستطع المرأة خلالها أن تفعل شيئاً، أو أن ترد ولدها عن الخروج وسط المعمعة اللاهبة، وعندما تمالكت نفسها، لحقت به وهي تصيح:

ـ ابراهيم.. ابراهيم..

ولكنه لم يرد عليها، ولم تتمكن من تبين شبحه الصغير وهو يختفي وراء أحد المنازل، فطاش صوابها، وراحت تصرخ:

ـ ابراهيم.. ابراهيم..

ولكن ما من مجيب...

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

وتلفتت حولها حائرة، لا تدري ماذا تصنع، وقد غفلت تماماً عن الإنفجارات والنيران المتبادلة بين الطرفين، ولم يعد يهمها إلا أن يعود إليها ابراهيم الذي اختفى بين طيات الظلام الذي كانت تضيئه، كل لحظة، قنبلة من هنا، أو رصاصة من هناك، وقبل أن تتحرك، رأت في الجو كتلة لاهبة من النار، سقطت على مبعدة عشرات من الأمتار منها، ثم سمعت انفجار هائل، وتطايرت شظايا القنبلة، فغابت المرأة عن الوعي، وما عادت تدري عما يدور حولها شيئاً..

* * *

أما إبراهيم فكان يتجه بكل قواه نحو بيت (عمو حاييم)، غير آبه للأصوات الداوية من حوله، ولا متحسب لرصاصة تصيبه أو قنبلة تمزقه، وكل ما كان يهمه هو الوصول إلى ذلك البيت بأية طريقة..

ووصل أخيراً، فوقف أمام المنزل المظلم يصيح:

– يوري.. يوري.. هل أنت هنا؟..

ولم يجبه أحد، بل ضاع صوته وسط أزيز الرصاص ودويّ القنابل، فعاد يرفع صوته أكثر وهو يضع يديه على جانبي فمه كالبوق:

– يوري.. يوري.. هل أنت هنا؟..

وظل المنزل المظلم على صمته..

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

وتقدم ابراهيم من الباب يقرعه بكلتا يديه، وما من مجيب، فأجال بصره حائراً، ثم لم يلبث أن خطر له خاطر، فدار حول المنزل، وتسلق نافذة المطبخ التي لم تكن مرتفعة كثيراً عن الأرض، وقفز إلى الداخل..

ومع صوت قفزته، ارتفعت أصوات هستيرية بصراخ مجنون، وكلمات بالعبرية، فاستطاع ابراهيم أن يميز بينها صوت يوري وراشيل، فصاح بهما:

ـ ماذا بكما.. هذا أنا.. ابراهيم..

وفي الحال انقطع الصراخ، وسمع ابراهيم صوت يوري يقول بصوت يهزه الرعب:

ـ ابراهيم.. لا.. لا.. لا تقتلنا..

ـ أقتلكم؟.. تساءل ابراهيم بدهشة ثم أردف:

ـ لقد جئت للإطمئنان عليكم..

واستطاع ابراهيم أن يميز ثلاثة أشباح تتحرك تحت المنضدة القائمة وسط المطبخ، وسمع صوت زوجة حاييم تقول:

ـ ابراهيم.. ماذا جئت تفعل؟.. هل جاء معك أحد..

فاقترب ابراهيم منهم وهو يقول بدهشة:

ـ ما هذا الكلام يا خالة؟.. لقد جئت للإطمئنان على

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

صديقي يوري . . .

وهمست المرأة بصوت مبحوح :

ـ احن رأسك واقترب . . .

وأحنى ابراهيم رأسه، وسار على يديه وقدميه حتى وصل إلى الأجسام الثلاثة التي كانت متلاصقة في رعب، وقال ابراهيم :

ـ يوري . . أسمعني صوتك . . هل أنت بخير . .

ـ أجل يا ابراهيم . .

ـ عندما بدأ إطلاق النيران، كنت مع أمي في المطبخ، ولم تكد تخطر ببالي حتى شعرت بقلق شديد عليك . . ولم أدر إلا وأنا أسرع إلى هنا كي أطمئن . .

وتسللت يد زوجة حاييم في الظلام حتى لامست يد ابراهيم فشدّت عليها وهي تهمس بالعبرية :

ـ ابراهيم . . يا لك من غلام مسكين . . .

ولم يفهم ابراهيم ماذا قالت، ولا هو سألها، فقد كان كل ما يهمه هو صديقه يوري، ولم يكد يطمئن عليه، حتى عاد القلق يغزو قلبه على أمه وأبيه، فقال لصديقه :

ـ أنا ذاهب . . لكي أطمئن على أمي وأبي . . بعد أن اطمأننت عليك . .

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

ولكن يوري تمسّك به وقال في توسل:

ـ أرجوك لا تذهب.. إنك لا تدري كم يفيدنا وجودك معنا..

ـ كما تشاء..

لقد كان ما أدهش ابراهيم بعد سنوات وسنوات من تلك الليلة، أنه لم يخطر بباله ـ وهو لا يزيد عن بضع سنوات من العمر ـ أن يسأل ـ أو يفكر، بين من ومن كانت المعركة؟ ومن الذي كان يطلق النار؟، ولماذا؟. وما هو سبب ذلك؟.. إلى غير ذلك من الأسئلة..

لقد كانت أمثال هذه الحوادث شيئاً مألوفاً في تلك الأيام، وكان يسمع أحاديث كثيرة عن «العرب» و «اليهود» و «الإنجليز» و «المظاهرات» و «الأحداث»... وغيرها من التعابير المتداولة، ولكنه لم يكن يعرف دوره ـ هو بالذات ـ في ذلك كله، ولا دور صديق طفولته «يوري».. فقد كانت هذه الصداقة هي كل ما يشغله إلى جانب اللعب، ودروس المدرسة، أما فيما عدا ذلك، فما كان يهمه أن يعرف، ولا كان يهمه أن يدرك.. ولقد دفع عمره ـ بأكمله ـ بعد ذلك، حتى عرف، وأدرك...

* * *

وفجأة توقف إطلاق النار مثلما بدأ...

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

ولم تعد تسمع في المكان طلقة واحدة، فلقد توقف إطلاق النار أولاً من بساتين الزيتون ثم توقف من الجانب الآخر بعد ذلك، وساد في الجو صمت رهيب...

ـ لقد رحلوا...

همس بذلك خليل الذي كان قائماً وراء مدفع رشاش صغير مقام على سطح أحد المنازل، والذي أبلى بلاء حسناً من موقعه ذاك، إذ كان يغير مكانه باستمرار، ويطلق النار بإحكام شديد كلما استطاع أن يميز شيئاً متحركاً في بساتين الزيتون، أو يستدل على مصدر للنيران منها..

وترددت العبارة، همساً، بين المدافعين عن القرية، ولكن أحداً منهم لم يغادر موقعه، فهم قد ألفوا الغدر من عدوهم، وعرفوا من مكره وأساليبه العدوانية الشيء الكثير، كما أن قائدهم «أبو جميل» لم يأمرهم بأن يتركوا مواقعهم، فظلوا فيها متحفزين كشأنهم عندما بدأت المعركة...

كان «أبو جميل» من مجاهدي ثورة عام ١٩٣٦، وكانت له وقائع ومواقع مع اليهود عبر إثني عشر عاماً مضت بعد ذلك على تلك الثورة، فقد كان أصلاً من جنود «قوة الحدود» التي ألفها الإنجليز وألحقوا بها الفلسطينيين، عرباً ويهودا، والتي كانت مجالاً تعلم فيه «أبو جميل» أصول القتال وقواعده وفنونه، وعندما نشبت ثورة عام ١٩٣٦، هجر «قوة الحدود» والتحق بالثوار، ثم ما لبث أن سكن «عين كارم» متنكراً تحت

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

اسم آخر، ومع أن الإنجليز كانوا يعلمون مكانه حق العلم، ويعلمون الإسم الذي تنكر تحته، ويطلبونه بتهمة الفرار من الخدمة العسكرية، إلا أنهم لم يحاولوا أن يقبضوا عليه أبداً، ولا أن يتعرضوا له بسوء، لأنهم كانوا يعلمون أن مثل هذا التصرف سوف يكلفهم غالياً، وهكذا عاش أبو جميل في البلدة، ليجد الجميع يعترفون به كقائد عسكري لهم، فيتبعون تعليماته، وينفذون خططه، فهو الذي أعد خطة الدفاع عن البلدة، وهو الوحيد الذي لم يثق قط بحاييم، وحاول جهده إقناع أهل البلدة بالحذر منه، فهو ـ كما كان يقول ـ أكثر خبرة منهم باليهود وخداعهم ومكرهم، وهو قد اختلط باليهود أكثر منهم، وزاملهم في «قوة الحدود» وقاتلهم أيام الثورة، ولكن أهل البلدة لم يشاركوا أبو جميل رأيه هذا في حاييم، وعندما يئس من إقناعهم رجاهم أن يكتفوا ـ على الأقل ـ بإخفاء استعداداتهم الدفاعية عنه، وتغيير مواقع أسلحتهم في خفية عن الرجل اليهودي...

ولقد تبين لأهل البلدة ـ بعد ذلك بزمن قصير ـ أنهم أحسنوا صنعاً بالإستماع إلى نصائح وتعليمات أبو جميل في هذا المجال، وندموا لأنهم لم يصغوا قبلها إلى تحذيراته...

* * *

ـ يا لها من ليلة...

قال يوري ذلك وهو يرتجف رعباً إذ يتذكر الليلة الرهيبة

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

التي مرت عليهم، وكان يسير برفقة ابراهيم في إحدى ضواحي البلدة..

والتفت يوري إلى ابراهيم وقال له متسائلاً:

ـ ما الذي جاء بك تلك الليلة إلى بيتنا؟.. لقد كدنا أن نموت من الرعب عندما رأينا شبحك يقفز علينا من نافذة المطبخ...

ورد ابراهيم ببساطة تامة:

ـ لقد أجبتك من قبل.. كنت خائفاً عليك.. وأردت أن أطمئن.. فأنت أحب أصدقائي إلي...

وأردف إبراهيم مستغرباً:

ـ ما الذي جعلكم تخافون عندما رأيتموني تلك الليلة.. هل أنا مخيف إلى هذا الحد؟..

وضحك يوري بارتباك وقال:

ـ لست أدري.. أبي وأمي كانا يحذراننا دائماً منكم...

ـ منا؟.. من نحن؟..

ـ أنتم العرب...

ـ العرب؟.. وما الفرق بيننا وبينكم؟.. إن أباك هو صديق حميم لأبي كما تعلم.. وكذلك أمي.. إنها صديقة لأمك..

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

ـ لست أدري . . لست أدري . . أرجوك دعنا من هذا الموضوع . .

وجلس الصديقان على حافة غدير صغير، كان ماؤه صافياً لدرجة جعلتهما يريان الأسماك الصغيرة التي لا يزيد طول الواحدة منها عن طول الخنصر وهي تروح وتجيء في اطمئنان . . .

ومد الغلامان أيديهما يحاولان القبض على الأسماك التي أخذت تندفع كالسهام ناجية بنفسها من خطر الأيدي المعتدية، ولكن الغلامين وفقا إلى اصطياد سمكتين أخذتا تنتفضان في يديهما، فأحس ابراهيم بشفقة طاغية تجتاح قلبه، فما كان منه إلا أن أعاد سمكته إلى الماء، فأخذت تنتفض عدة مرات، ثم ما لبثت أن لحقت برفيقاتها، أما يوري فقد شدّد الضغط بأصبعيه على بطن السمكة وهو يضحك ويصيح بزميله:

ـ أنظر . . انظر . . لقد ماتت . .

وكانت حركة السمكة قد خمدت فعلاً . . وشدد يوري الضغط، فبرزت أحشاؤها المتناهية في دقتها الأمر الذي استثار ضحك يوري أكثر فأكثر، بينما صاح به ابراهيم مؤنباً:

ـ حرام عليك . . لقد قتلتها . .

وألقى يوري بالسمكة بعيداً وهو لا يزال يضحك، وقال

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

تعليقاً على عبارة ابراهيم:

ـ وماذا في ذلك؟.. لقد كان أمراً ممتعاً..

وشعر ابراهيم بشيء من النفور، ولكنه كتم شعوره، ونهض عن حافة الغدير خوفاً من أن يعيد يوري لعبته الوحشية، ولحق به يوري، وعادا يتمشيان على الأرض المعشوبة...

وفجأة، جذب ابراهيم ذراع زميله وقال له:

ـ أنظر.. تلك امرأة عجرية...

ونظر يوري إلى حيث أشار إبراهيم، فرأى امرأة من نساء الغجر اللواتي يطفن بالقرى وهن يحملن معهن عدة الإرتزاق.. فيضربن بالودع.. والرمل.. ويصفن بعض الأعشاب كأدوية.. وينقشن الوشم على ذقون وخدود من تشاء من الريفيات.. وكان ابراهيم قد رأى امرأة غجرية تنقش وشماً على ذراع أحد الفلاحين، يمثل طائراً، فخطرت له فكرة، والتفت إلى زميله قائلاً:

ـ يوري.. ما رأيك في أن نسجل صداقتنا على ذراعينا؟..

ولم يفهم يوري، وسأله عما يقصد، فقال له ابراهيم بحماسة:

ـ إن هؤلاء الغجريات ينقشن الوشم على أجسام

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

النـــاس.. على خـــدودهـــم.. على أصـــداغـهـم.. عـلى أذرعتهـم.. فما رأيك في أن نـطلب من هذه الغجـرية أن تنقش لنـا وشماً يمثـل طـائـراً فـارداً جنـاحيـه على ذراعي وذراعك.. وبهذا يكون هذا الوشم تسجيلاً لصداقتنا نذكره مدى الحياة.. فربما افترقنا.. والزمن، كما تعلم، يغير من أشكال الناس فإذا حدث ذلك والتقينا وغير الزمن شكلينا، كان هذا الوشم دليلاً أعرفك به وتعرفني؟..

ويبدو أن الفكرة قد راقت للغلام اليهودي، فقال لصديقه بحماسة:

ـ فكرة رائعة.. فكرة رائعة..

ولكن الكدر بدا على وجه يوري وهو يقول بأسف:

ـ ولكن هذه الغجرية ستطلب كثيراً...

فقال له ابراهيم:

ـ معي شلن.. سأدفعه لك.. وتكمل أنت الباقي.. كم معك..

فقال يوري ويده في جيب سرواله تقبض بقوة على قطعة معدنية بقيمة «شلن»:

ـ أنا؟.. ليس معي شيء للأسف..

ورد عليه ابراهيم ببساطة:

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

ـ لا يهم.. سنعرض عليها الشلن فإذا قبلت كان بها وإذا أبت فهي حرة..

ورفع ابراهيم صوته منادياً المرأة الغجرية التي ما لبثت أن اتجهت نحوهما، وذكر لها ابراهيم غرضه وزميله، فأشرق وجه المرأة بالسرور وقالت:

ـ يا ألف أهلاً وسهلاً.. أنا حاضرة...

فسألها ابراهيم بتردد:

ـ ولكن.. كم تطلبين؟..

فردت المرأة بسرعة:

ـ بريزة.. بريزة واحدة..

ولكن ابراهيم أجابها بلهجة حاسمة:

ـ ليس معنا سوى شلن واحد.. فإذا كان كافياً فابدأي في الحال.. وإلا فمع السلامة..

وصدمت الغجرية، ووقفت مترددة برهة، ورمقت الصبيين بنظرة فاحصة اقتنعت معها أن من غير المعقول أن يكون لديهما أكثر من ذلك الشلن، فهزت رأسها في أسف وجلست على الأرض وشرعت تفتح الصرة التي تحملها وهي تقول:

ـ شلن.. شلن.. ماشي الحال.. هه.. ماذا تريدان

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

أن أرسم لكما.. عصفور.. دجاجة.. قلب.. سمكة..

فقال لها يوري بلهفة:

ـ سمكة.. أجل.. أجل سمكة..

والتفت إلى ابراهيم قائلاً وهو يضحك:

ـ تخليداً لذكرى تلك السمكة..

وشعر ابراهيم بامتعاض وهو يتذكر السمكة المسكينة التي سحقها يوري بين أصبعيه ولكنه لم يشأ الاعتراض فقال:

ـ ليكن.. سمكة...

وشمر الطفلان عن ذراعيهما، وبدأت الغجرية في نقش الوشم الذي يمثل سمكة صغيرة منحنية وكأنما تسبح في الماء...

* * *

عندما قفل الطفلان عائدين إلى البلدة، كانا في أشد حالات الفرح والإغتباط، ولقد توقفا عدة مرات في الطريق، ليكشفا عن ذراعيهما وينظرا إلى الرسم الذي وشمته الغجرية على ذراع كل منهما، والذي تحمّلا من أجله كثيراً من الآلام عندما كانت المرأة تجري إبرتها الدقيقة على اللحم الغض، وهي تنقش الرسمين المتشابهين كل التشابه، لسمكة لا يزيد

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

طولها عن سبعة أو ثمانية سنتيمترات، عند أعلى الكف من باطن الذراع اليسرى لكل منهما..

وشبك يوري ذراعه بذراع صديقه وقال له وهما يجدان السير:

ـ الآن لن نضيع عن بعضنا أبداً.. أليس كذلك؟..

ـ تماماً.. يكفي أن يكشف أحدنا عن ذراعه للآخر، ليرى هذا الآخر نفس الرسم موشوماً على باطن الذراع..

كانا في قمة سعادة الطفولة بهذه الخطوة التي ساقتها إليهما الصدفة، بمرور تلك المرأة الغجرية، وقيامها بنقش ذلك الوشم...

وفي منزلي الطفلين كانت ردة الفعل متماثلة ـ مثلما الوشم متماثل ـ تماماً...

إن أهليهما لم يقابلا هذه اللعبة الصبيانية بارتياح..

إن أم يوري، مثلاً، ضربت على صدرها بدهشة وانزعاج عندما كشف لها ولدها عن ذراعه وأراها الوشم متباهياً فخوراً، وحين شرح لها سرّه، علاها الوجوم، ولم تقابل النبأ بالفرح الذي كان يتوقعه منها...

وقالت الأم مؤنبة:

ـ ما لك ولهذا الولد العربي؟.. أنت إسرائيلي وهو

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

عـربي . . فمـا الـذي يجعلك تـرتبط معـه بهـذه الشـارة السخيفة؟ . .

ـ سخيفة؟ . .

هتف الولد بدهشة، وأردف قائلاً ببساطة:

ـ إنني لا أفهم معنى أن تقـولي أنني إسـرائيلي وهـو عربي . . هذا لا يغير شيئاً من الأمر وهو أنه ابن وطني كما أنني ابن وطنه . .

ـ لا . . لستما ابني وطن واحد . .

ردت الأم بعنف وهي تحدّق في ولدهـا بعينين يتطايـر منهما شرر الغضب والاستنكار . .

واستطردت الأم تقول:

ـ ألف مرة قلت لك أن هؤلاء العرب أعداؤنا . . هل تفهم؟ . . هل نسيت النيران التي صبوها علينا في تلك الليلة ونحن قعود تحت منضدة المطبخ؟ . .

ورد الصغير بسذاجة:

ـ ولكن الناس يقولون أن يهوداً مثلنا هم الذين كـانوا يصبون تلك النيران . . وأن بلدتنا كانت تدافع عن نفسها . . سمعت أن اليهـود هم الذين تسللوا إلى بسـاتين الزيتـون، وراحوا يوجهون نيرانهم إليها . .

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

ـ لا تصدق.. هذه أكاذيب يروجها العرب.. وعليك أن تبتعد منذ الآن عن صديقك العربي هذا.. هل تفهم؟..

ـ ابتعد عنه؟.. مستحيل.. أنه أعز أصدقائي..

ـ بل يجب أن تبتعد عنه رغم أنفك.. سمعت؟..

وأحنى الطفل رأسه في إذعان وهو يحدث نفسه بأنه لم يفهم شيئاً من حديثه مع أمه، وشمر كمه عن ساعده الأيسر ببطء، وأدار باطن ذراعه وراح يتأمله في صمت ويقول في نفسه، أنه يستحيل عليه أن يقطع صلته بابراهيم فهذا هو شعار الصداقة الدائمة قد وشمه على ذراعه، وإن هذا الشعار يلزمه بالوفاء له، ولمغزاه..

وقرر أن يلتزم الصمت، وألا يجادل أمه في هذا الموضوع مرة أخرى، ثم ما لبث أن قرر ألا يجادل أباه أيضاً، لأن الأب عندما جاء إلى المنزل وحدثته الأم بما جرى، لم يكن غضبه واستنكاره بأقل من غضبها واستنكارها..

وازداد شعور يوري بأنه لا يفهم كثيراً من الأمور التي يراها ويسمعها في هذه البلدة..

أما ابراهيم، فكان رد فعل أبيه مختلفاً عما حدث مع يوري، فهو لم يكن مستنكراً تلك المسألة بقدر ما كان مستغرباً لها..

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

لقد أمسك أبو ابراهيم بذراع ولده، وراح يتأمل الوشم، وقد ارتسمت على وجهه معالم مرارة عميقة وألم دفين..

وقال الأب وهو يهز رأسه في حزن:

ـ والله لا أدري ماذا أقول لك يا ولدي.. إنني، للأسف، لا أستطيع أن أشاركك اغتباطك بهذه العلامة التي وشمتها مع صديقك على ذراعيكما.. إنني أتوقع لكما فراقاً سريعاً.. إن أحدكما لا بد وأن يبعد عن الآخر.. هذا أمر محتم تقتضيه الأحداث التي تدور من حولنا.. يبدو لي أن جدك كان على حق.. وأننا كنا، بمشاعرنا نحو هؤلاء القوم، في واد، وهم في واد آخر تماماً..

ولم يفهم ابراهيم ـ بدوره ـ كل ما قاله أبوه..

كان كل ما استرعى انتباهه هو إشارة أبيه إلى حتمية الفراق بينه وبين صديقه وزميله، فشعر بالقلق الشديد يجتاحه، وتساءل بصوت مرتجف:

ـ لم ترى يا أبي أننا يجب أن نفترق عن بعضنا أنا وصديقي يوري؟.. إنك لم تطلب مني هذا الطلب من قبل.. فهل ترغب مني أن أقطع صلتي به؟..

ـ لا والله يا ولدي.. لا أرغب.. ولم يسبق لي أن أبديت لك مثل هذه الرغبة، ولكنه هو.. وقومه.. لهم في الموضوع رأي آخر..

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

ـ لم أفهم يا أبي..

ـ ستفهم يوماً ما.. بكل تأكيد ستفهم.. ويبدو لي أن الصراع الذي مضى بيننا وبينهم لا يعد شيئاً أمام الصراع الآتي... إننا مقبلون على أيام عصيبة.. جد عصيبة يا ولدي...

وشعر ابراهيم بأن فرحته بما صنع هو ويوري قد تضاءلت فمع أنه لم يفهم تماماً ما رمى أبوه إليه، إلا أنه أدرك، من مجمل الحديث، أن شيئاً ما في صلته بيوري يبدو لأبيه غير طبيعي.. وتزايد قلقه عندما استعاد إشارة أبيه إلى الفراق الوشيك المحتم بينه وبين صديقه، وحدّث نفسه بأن هذا لا يمكن أن يحدث...

وحول نظره ببطء إلى باطن ذراعه، وراح يتأمل السمكة الزرقاء التي وشمتها الغجرية، فما لبث أن شعر بقلقه يتبدد، وبأن أباه يحدثه بمنطق لا يهمه شخصياً، فهو منطق «الكبار» كأبيه وأبي يوري... أما هما فصديقان تعاهدا على صداقة دائمة لا يمكن أن تؤثر فيها أية أيام عصيبة مقبلة..

وتحول عبوسه إلى ابتسام، وزال كل ما أحدثته كلمات أبيه في نفسه من قلق وانزعاج...

* * *

ولكن ما تحدث عنه الأبوان، العربي واليهودي على

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

السواء، ما لبث أن تحقق بأسرع مما كانا يتوقعان...

كان ذلك في شهر نيسان من العام ١٩٤٨ م، اليوم الثاني عشر منه... فلقد أفاق أهل بلدة «عين كارم» على أعداد كبيرة من النساء والأطفال والشيوخ، وقلة ضئيلة من الشباب، تحمل أمتعتها على ظهورها، وتدخل البلدة مع إشراقة صباح ذلك اليوم...

ودهش الناس، في عين كارم، عندما غادروا بيوتهم صباحاً في طريقهم إلى أعمالهم ومدارسهم، ورأوا تلك الأعداد الكبيرة من العرب وهم ينتشرون في أرجاء البلدة وشوارعها، وساحاتها الرئيسية...

وكانت دهشة أبو ابراهيم إلى درجة الذهول.. فاقترب من بعض أولئك البؤساء الذين ارتسم الرعب على وجوههم، وزاغت أبصارهم وكأنهم رأوا هولاً عظيماً، وبدا عليهم وكأنهم مروا بتجربة عصيبة...

ـ من أنتم؟.. من أين جئتم؟.. ماذا جرى لكم؟..

ـ نحن من سكان دير ياسين..

وكان عدد آخر من أهالي عين كارم قد تجمعوا حول هؤلاء، وراحوا يسألونهم عما جاء بهم في تلك الساعة المبكرة، ولماذا يحملون أمتعتهم على ظهورهم وكأنهم عازمون على سفر...

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

وراح أولئك يتحدثون بصوت واحد.. وأهالي عين كارم يستمعون إليهم مذهولين.. وأمكن ـ بكثير من الجهر في محاولة الإصغاء والفهم ـ ربط الكلمات المتناثرة ببعضها، ليخرج السامعون ـ بعد ذلك ـ بمعلومات عن الحادثة المروّعة التي أصيبت بها بلدة دير ياسين، التي كانت تبعد عن عين كارم ثلاثة كيلومترات وعن القدس أربعة كيلومترات..

ـ حدث ذلك فجر الليلة الفائتة...

هكذا بدأ أهالي دير ياسين قصتهم... ثم استطردوا:

ـ فوجئنا بأعداد كبيرة من اليهود المسلحين، ومعهم عدد من المصفحات الصغيرة من طراز «سكاوتات».. وعلى رأسهم رجل يدعى «مناحيم بيجين».. إنه زعيم أولئك اليهود الذين ينتسبون إلى المنظمة الإرهابية المسماة «اتسل».. وهو اختصار للإسم الكامل لمنظمة «أرغون تسفائي ليؤومي»...

لقد حاصر الإرهابيون اليهود دير ياسين من معظم جهاتها، وجاءنا كبيرهم «بيجين» وقال لنا:

ـ لا تخافوا.. ليس هناك شيء.. أنتم قوم مسالمون ولم يكن لكم يد في الأحداث التي تقع في أماكن أخرى من فلسطين.. لقد جئنا لمجرد اتخاذ مراكز لحماية المستوطنات اليهودية القريبة منكم... ونرغب في أن يتجمع أهالي القرية في الساحة الرئيسية لكي ننظم أمر الحماية.. ليس غير...

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

إن معظمنا ـ قال أهالي دير ياسين ـ قد أخذ الأمر مأخذاً عادياً، فلقد ألفنا أن تمر بقريتنا قوات عربية تارة. . وإنجليزية تارة أخرى. . ويهودية تارة ثالثة. . .

لقد تجمعنا في الساحة كما طلبوا منا. . وكنا شيوخاً ونساء وأطفالاً. . لم يكن بيننا سوى قلة من الشباب. . وأدار ذاك المسمى «بيجين» عينيه فينا وكأنه يريد أن يتأكد من أن جميع أهل القرية قد أصبحوا أمامه ثم. . .

هنا يرتسم الشعور بالهول على وجوه الناجين القلائل من أهالي دير ياسين وهم يتذكرون ما حدث ثم يروونه لسامعيهم المشدوهين:

ـ لم نعد نرى سوى رصاص من مختلف الأنواع يصب علينا من جميع الأنحاء. . بينما كانت صرخات المعتدين الوحشية تمتزج بصرخات المصابين من أهالي القرية المسالمة. .

لقد فعل بنا اليهود ما لا يخطر ببال أقسى الوحوش أن يفعلوه. . صبوا نيرانهم بصورة عشوائية وكيفما اتفق، نسفوا المنازل، أحرقوا البيوت، بقروا بطون الحبالى بحراب بنادقهم، وقائدهم «بيجين» على رأسهم يوجه النيران ويصدر الأوامر، وكأنه يريد أن يبيد أهل القرية جميعاً. . وألا يترك منهم سوى قلائل ـ عامداً ـ كي يحدثوا العرب الآخرين بما جرى. . .

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

كان أبو ابراهيم يصغي ونيران الغضب تلتهب في صدره، ولم يكن بحاجة إلى كثير أو قليل من الذكاء كي يفهم أبعاد هذه المجزرة التي قام بها الصهيونيون فجر هذا اليوم..

وتبادل الرجال النظرات، وكان الفهم واضحاً على وجوههم جميعاً، لقد بدأ التهجير بالإرهاب.. والإرهاب الوحشي...

وأشار أبو ابراهيم برأسه إلى الرجال المجتمعين أمام الناجين من أهالي دير ياسين وقال لهم وهو يستدير متجهاً إلى بيته:

ـ تعالوا معي... لقد باتت الأمور أخطر مما كنا نظن.. وعلينا أن نرى ما يجب أن نفعل.. وليعتن بعضكم بأهالي دير ياسين.. قدموا لهم الطعام والمأوى لنرى ما سوف نفعل..

وتبع الرجال أبو ابراهيم صامتين ونيران غضب لا يوصف تضطرم في قلوبهم ومشاعرهم، وقبل أن يصلوا إلى مدخل البيت، رأوا سيارة جيب صغيرة تقترب منهم آتية من اتجاه دير ياسين وقد رسم على جانبيها الصليب الأحمر بألوان كثيفة مميزة..

وتوقفت السيارة أمام الرجال، وهبط منها رجل أجنبي، تبين من حديثه بالإنجليزية أنه فرنسي، وكانت ملابسه

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

ممزقة، وشعره أشعث، ووجه ملوثاً بدخان أسود، ولكنه كان متمالكاً وعيه، وفي أوج قوته...

وقال الرجل بالعربية وهو يقفز من السيارة:

ـ السلام عليكم...

ورد الرجال السلام وهم يحدقون فيه باهتمام، ثم أردف الرجل يقول بالإنجليزية بلكنته الفرنسية:

ـ أرجو ألا تنزعجوا مني.. إنني صديق.. (وأومأ برأسه جهة دير ياسين وقال) لقد جئت من هناك لتوي.. اسمي «جاك رونييه».. من الصليب الأحمر الدولي.. ما إن علمت بالمجزرة الي قامت بها «اتسل» في دير ياسين حتى جئت لتوي لكي أرى بنفسي، وأتبين ما يمكن لنا أن نقدم من مساعدات...

وغامت عينا الفرنسي وهو يقول:

ـ رباه.. لم أر مثل هذه الوحشية من قبل.. لقد عددت مائتين وخمسين جثة لنساء وشيوخ وأطفال.. قد مثل بهم اليهود أبشع تمثيل.. انهم لم يسمحوا لي بالدخول إلى القرية إلا بعد جهد... كانوا في حالة عصبية شديدة.. ولكنني هددتهم بأنني سأنشر على العالم كله أنباء هذه المجزرة، وأنني أحملهم مسئولية منع ممثل الصليب الأحمر الدولي من الدخول.. لقد سمحوا لي بعد لأي...

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

وغطى الرجل وجهه بيديه وقال وهو يرتجف:

ـ يا إلهي.. أية مجزرة.. وأية وحشية..

ثم ركب الرجل سيارته، وأدار محركها وهو يقول:

ـ إنني ذاهب إلى المقر الرئيسي للصليب الأحمر الدولي لأرى ما يمكن عمله من أجل أولئك التعساء...

ولم يلبث أن انطلق، وعيون الرجال تتابعه وقد التهبت ببريق من الغضب الهائل...

ـ يا اخوان المسألة واضحة وضوح الشمس... حادثة دير ياسين هذه لها دلالات واضحة لا تخفى على أحد.. إنهم يريدون إخلاء الأراضي العربية من سكانها، كي يحتلها اليهود الغرباء... هذا واضح.. وأنا متأكد من أنهم قد اتبعوا تلك الطريقة الوحشية العنيفة، لدب الذعر في قلوب سكان القرى المجاورة كي يهجروا قراهم.. فماذا أنتم قائلون.. وماذا أنتم فاعلون؟..

أصغى الرجال الغاضبون إلى كلام أبو ابراهيم، وتبادلوا نظرات متسائلة، فإذا كان العدو الصهيوني قد بدأ بدير ياسين، فإن الدور سيأتي على عين كارم بكل تأكيد...

وقال خليل:

ـ لقد بت أعتقد الآن أن محاولة غزونا ما هي إلا حلقة

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

من سلسلة مخططهم الإجرامي الوحشي، ولولا أننا تصدينا لهم فلربما فعلوا بنا مثلما فعلوا بدير ياسين. . .

وقال أبو جميل على الفور:

ـ عمرك أطول من عمري يا خليل. . هذا ما كنت أريد أن أقوله لكم. . اسألوني أنا عن اليهود. . . لقد خبرتهم بما فيه الكفاية. .

فقال أبو ابراهيم وهو يضرب بيده على المنضدة:

ـ المهم هو ما يجب أن نفعل. . هذا هو المهم. .

ورد عليه أبو جميل:

ـ إنك تستطيع أن تراهم بالعين المجردة وهم يقيمون استحكاماتهم في دير ياسين. . إن بلدتنا ـ يا إخوان ـ هي هدفهم التالي ولا ريب. .

فقال نمر بحماسة الشباب:

ـ لم لا نقوم بهجوم مضاد؟. .

وهز أبو جميل رأسه بمرارة وهو يجيبه:

ـ هذا أبسط ما تقضي به الأصول العسكرية. . ولكن من أين لنا السلاح الكافي؟. . إنهم يستخدمون «السكاوتات» ويطلقون منها نيران مدافعهم. . والمشكلة أن إخواننا في القطاعات الأخرى مشغولون جميعاً بأنفسهم. . فهم أيضاً

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

يجابهون اليهود في مواقع كثيرة.. ويجابهون الإنجليز أيضاً كلما ساء موقف اليهود..

فقال نمر وهو يصر على أسنانه بغضب:

ـ إذن ماذا نفعل؟.. ماذا نفعل.. هل نقف مكتوفي الأيدي؟..

وتكلم صالح بهدوء:

ـ اصغوا إليّ.. يجب أن نكون عمليين.. بعد شهر واحد ينتهي الإنتداب البريطاني على فلسطين.. وتدخل الجيوش العربية.. ولا شك في أن هذا سوف يدعم موقفنا...

فقال نمر بسرعة:

ـ وهل ننتظر دخول الجيوش العربية، وأنت أدرى بأحوال معظمها، وندع اليهود ينزلون بنا وحشيتهم، فيقتلون أبناءنا، ويبقرون بطون نسائنا... ويهدمون بيوتنا... ويطردوننا من أرضنا؟..

ـ كفى.. كفى..

صرخ فيه أبو ابراهيم، وهو يستمع إلى الصورة المروّعة التي رسمها نمر بكلماته الحماسية الصادقة..

وساد صمت تام في المكان.. فالرغبة في الثأر لدير

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

ياسين تلتهب في دمائهم.. والرغبة في الدفاع عن بلدتهم تثقل كواهلهم.. ومظاهر اليأس تحيط بهم من كل جانب..

وقطع صالح الصمت ليقول:

ـ قلت لكم، يا إخوان، لنكن عمليين.. المعركة لا بد واقعة.. وأرى أن نجلي النساء والأطفال والشيوخ إلى القدس.. ونبقى نحن هنا للدفاع عن عين كارم...

فقال أبو ابراهيم باستنكار:

ـ نجلي أهلنا عن البلدة؟.. أليس هذا ما يريده عدونا؟...

ـ صحيح.. ولكننا لن نستسلم، وأعتقد أن بإمكاننا أن نقاتل بحرية أكثر بعد أن نطمئن إلى خروج عيالنا...

وبدا على الجميع تقريباً الإقتناع بما قاله صالح، ولكن نمر صرخ بعنف:

ـ لا.. لا.. نموت معهم.. أو نحيا معهم.. ما رأيك يا عمي أبو جميل..

وفتل أبو جميل شاربه الكبير في بطء وقال بلهجة الخبير الواثق مما يقول:

ـ كلاكما على صواب.. إبقاء العوائل صواب.. وإجلاؤها صواب.. ولكنني أتصور أننا سنكون أكثر قدرة

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

على التحرك إذا خرجت العيال..

وكانت آراء أبو جميل هي ـ كالعادة ـ الكلمة الفاصلة، فبدا عليهم الإقتناع، وإن كان واضحاً أنه اقتناع غير كامل، ولكن أبو جميل بخبرته العسكرية، وإخلاصه وشجاعته، قادر على أن يضع للموقف تقييماً لا يستطيعونه، وهم رجال زراعة وفلاحة ليس غير...

ـ وإلى أين تتجه العوائل؟..

سأل أبو ابراهيم وقد بدا عليه أنه اقتنع..

وأجاب أبو جميل:

ـ إلى القدس طبعاً.. هناك عمارات كثيرة في القدس الجديدة.. وهناك كما تعلمون قوات عربية غير قليلة...

وسأل نمر بدهشة:

ـ القدس الجديدة؟.. ولكنها لليهود..

فنظر إليه أبو ابراهيم وقال مستنكراً:

ـ من قال لك أن القدس الجديدة لليهود؟..

ـ هكذا أسمع..

ـ لقد كذبك من قال ذلك.. القدس لنا قديمها وجديدها.. نحن الذين بنيناها.. واليهود هم الذين يروجون هذه الأكذوبة لكي يدّعوا لأنفسهم نصيباً في القدس.. إن

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

الغالبية العظمى من سكان القدس القديمة والجديدة هي من العرب. . والغالبية العظمى من أصحاب العمارات والمساكن والمتاجر في القدس الجديدة هم من العرب. . هل فهمت يا نمر يا ولدي؟. .

فابتسم نمر وقال وهو يتنهد:

ـ الحمد لله. . في الواقع لم أكن أعرف هذا. .

ـ نحمد الله على أنك عرفته. . والآن. . علينا أن نرى ما نصنع لنقل عائلاتنا إلى القدس، وتنظيم الدفاع عن بلدتنا. . .

* * *

قالت أم ابراهيم وهي تضم طفلها إلى صدرها:

ـ كيف نترك عين كارم يا أبو ابراهيم. . إنني ما عرفت لنفسي مسكناً غيرها. . .

ـ لقد بحثنا الأمر، وقررنا نقلكم إلى القدس الجديدة. . .

ـ وأنت؟. . .

ـ أنا؟. . أنا أبقى هنا. . فإما انتصار وأما استشهاد. . ولا وسط. . لا وسط أبداً. . .

وشهقت أم ابراهيم في رعب وهي تسمع كلام زوجها،

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

وترى إلى ملامح الصرامة الحادة التي اكتساها وجهه . . .

ـ سوف تسكنون في حي البقعة . . عند أقاربنا . . فإذا سارت الأمور كما نشتهي فإن غيابكم عن عين كارم لن يطول . . أسبوع من الزمن . . أو شهر على الأكثر وتعودون إليها إن شاء الله . .

ـ وأنت؟ . .

ـ قلت لك إنني باقٍ هنا . . وضعي يختلف عن وضعكم . . ولا أرضى بأن أنسحب أمام أولئك الجبناء الذين ما اعتادوا أن يقاتلوا كالرجال . . وإنما يعمدون إلى الغدر والإعتداء والتسلل . . . سأواجههم وأرى ما يفعلون . . .

ـ أنا خائفة عليك يا أبو ابراهيم . . .

ـ لا تخافي . . فما قدره الله هو الذي سيكون . . والأعمار بيد الله . . ولئن قدر لي أن أموت فأشرف لي ألف مرة أن أموت على أرضي . . فأرويها بدمي مثلما كنت أرويها بعرقي . . .

وراحت أم ابراهيم تنشج، وتشد ابراهيم إلى صدرها، وكان ابراهيم يصغي إلى الحديث بانتباه شديد، ومع أنه لم يفهم فحواه كله، إلا أنه أدرك أن شراً مستطيراً يحلق في سماء البلدة وأن آثار هذا الشر ستنالهم . . وأنهم ـ لهذا ـ سوف يذهبون إلى القدس . . .

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

وتكلم ابراهيم أخيراً بعد أن تكونت لديه الفكرة التي فهمها:

ـ إذن سنذهب كلنا إلى القدس...

فقالت الأم بصوت باك:

ـ نعم يا ولدي...

ـ كل أهل البلدة؟..

ـ نعم يا ولدي.. النساء والشيوخ والأطفال..

ورنت كلمة «الأطفال» في أذن ابراهيم رنيناً خاصاً، فنزل من حضن أمه وتوجه نحو باب الخروج بسرعة...

ـ إلى أين تذهب؟..

صاحت به أمه...

ـ سأعود بعد قليل...

أجابها وهو يطلق ساقيه للريح...

ارتفع صوت طرق عنيف على باب منزل حاييم، فتوقف الرجل فجأة عما كان فيه، وجمد الدم في عروقه، ونظر إلى زوجته التي اتسعت عيناها رعباً، بينما انكمش يوري وراشيل في ركن من الغرفة، وأشار حاييم إلى عائلته بالصمت، ثم أخفى البندقية التي كان منهمكاً في تنظيفها، تحت أحد المقاعد الطويلة، وهبت الأسرة كلها تخفي كل المعالم التي

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

تدل على ما كانوا يصنعون، ثم اقترب حاييم ببطء شديد من النافذة، وأزاح طرف الستارة بحذر ثم لم يلبث أن تنهد بارتياح، وأشار برأسه إلى زوجته كي تفتح الباب، ولكن هذه ظلت مسمرة في أرضها تنظر إليه برعب، فاتجه بنفسه إلى الباب يفتحه وهو يقول بلهجة مرحة حاول أن يخفي ما اعتراها من اضطراب:

ـ ما من أحد غريب.. هذا صديقنا ابراهيم..

ودخل ابراهيم وهو يلهث، لشدة وطول ما جرى، وارتمى على أقرب كرسي وهو لا يزال يلهث، الأمر الذي أثار مخاوف العائلة اليهودية، التي التفت حوله تنتظره كي يلتقط أنفاسه ويتحدث..

وتحدث ابراهيم مخاطباً يوري:

ـ سنذهب معاً إلى القدس.. فلا تتحرك من البيت حتى أمر عليك.. سوف يكون الزحام شديداً.. وسنمسك أيدي بعض بقوة كيلا نفترق...

وقال يوري بدهشة:

ـ نذهب إلى القدس؟.. لم؟..

وقالت الأم وكأنما تؤيد كلام ولدها:

ـ لن يذهب يوري إلى القدس.. ماذا هناك؟..

فنظر إليها ابراهيم بدهشة وقال:

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

ـ وانت أيضا ستذهبي . . وراشيل كذلك . . لن يبقى سوى عمو حاييم . .

فبدا الإستغراب على وجوه الأربعة وقال حاييم :

ـ من قال لك ذلك؟ . .

ـ كلهم يتحدثون عنه . .

ـ عم يتحدثون؟ . .

ـ إنهم يقولون أن جميع النساء والأطفال والشيوخ سيغادرون عين كارم إلى القدس . . . ولن يبقى سواكم أيها الرجال . . .

ـ والسبب؟ . .

ـ لكي تدافعوا عن القرية ضد الإرهابيين . . .

وتلاعبت ابتسامة على وجه الأم، بينما بدا الإرتياح على وجه حاييم، أما الطفلان فلم يبد عليهما أنهما فهما شيئاً . . .

واستطرد ابراهيم في كلامه :

ـ لم أكد أسمع بذلك حتى جئت مسرعاً كي أطمئن إلى أنني سأرافق يوري وراشيل إلى القدس . .

وتحجرت لهجة الأم وهي تقول له بجفاء :

ـ لن يذهب أحد منا . . ستذهبون وحدكم . .

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

ـ وأنتم؟..

ـ سنبقى هنا...

ـ والإرهابيون؟..

ـ ليس هناك إرهابيين...

ـ إنهم يقولون..

ـ دعنا مما يقولون.. تذهبون وحدكم.. ونبقى نحن..

وشعر ابراهيم بالحيرة الشديدة، فقد كان يظن أنه جاء يؤدي خدمة لصديقه يوري ولعائلته فإذا بهم يتمسكون بالبقاء في البلدة غير آبهين بالأخطار التي توهمها..

وعاد ابراهيم يقول:

ـ لا تنسوا ما جرى في دير ياسين.. لقد سمعتهم يقولون أن الإرهابيين بقروا بطون النساء، ومزقوا الأطفال إلى أشلاء.. وهدموا البيوت.. ولم ينج من أهل القرية إلا القليل...

وربت حاييم على كتف ابراهيم ملاطفاً وهو يقول:

ـ شكراً لك على كل حال.. اذهبوا أنتم.. وسوف نتبعكم نحن بعد أيام..

ـ دعني آخذ يوري معي إذن.. ونسبقكم..

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

ـ لا . . دعه هنا . . إنه لا يستطيع أن يغادر المكان . .

ونهض ابـراهيم متثاقـلاً، وقد أصـابته خيبـة الأمل في أعماقه، فهو لم يكن يتصور أن يغادر عين كارم من غير أن يرافقه يوري، وغاب عن باله في تلك اللحظة ما سبق أن قاله له يوري، وأبوه، عن الفارق بين العربي واليهودي، فكل ما كان في ذهنه هو أن بينه وبين يوري عهداً أبدياً على الصداقة والأخوة وَشما رمزه على باطن ذراعيهما . . .

وشمر إبراهيم عن ذراعه اليسرى، وراح ينظر إلى الوشم والدموع تنهمر من عينيه، بينما أشاح يوري بوجهه عنه، وهو يشعر بالتمزق، موزعاً ما بين صداقته لابراهيم وما يقوله له أبواه من أن إبراهيم وقومه جميعاً هم أعداء لهم . .

وهز يوري رأسه بعنف وقال بصوت خافت ما لبث أن ارتفع متصاعداً ليصل حد الصراخ :

ـ لا . . لا . . ابراهيم ليس عدواً . . الأعداء لا يفعلون هكذا . .

واتسعت حدقتا ابراهيم بذهول وهو يقول :

ـ عدو؟ . . أنا؟ . . من قال لك ذلك؟ . .

فتضاحك حاييم، ودفع ابراهيم من كتفه بلطف وقال وهو يتجه به نحو الباب :

ـ إنه يمزح . . أنتما أصدقاء إلى آخر العمر . . وهذا هو

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

الوشم على ذراعيكما يثبت ذلك..

ووجد ابراهيم نفسه خارج المنزل، فوقف حائراً لا يدري ما يفعل، فهو لم يفهم مما جرى ويجري شيئاً، ولم يكن أمامه سوى أن يمسح دموعه المتساقطة بكمه، ثم يطلق ساقيه للريح مرة أخرى... يجري. ويجري.. ويجري...

أما داخل بيت حاييم فقد عمت الفرحة، فها هم العرب يوشكون على الرحيل كما فعل أهالي دير ياسين، وحاييم طامع منذ سنوات وسنوات بمنزل أبو ابراهيم ذي الحجرات الواسعة، والشرفات العريضة، والقائم بين مناظر خلابة، والذي بناه جده الأكبر، ثم راح أبناؤه من بعده يوسعونه ويزيدون عليه حتى بات أجمل بيوت عين كارم بدون منازع...

وأجال حاييم نظره في بيته المتواضع، فبدا له متناهياً في حقارته، وضيقه، فالتفت إلى زوجته وقال لها ضاحكاً:

ـ غداً.. يكون بيت الحاج أبو ابراهيم لنا...

واستغرق الإثنان في الضحك...

* * *

كان نزوحاً رهيباً، مروعّاً، لم يبارح ذاكرة ابراهيم ـ بعد ذلك ـ أبداً..

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

غاب أبوه طوال النهار عن البيت، ودبت في «عين كارم» حركة غير عادية لم تعهدها في حياتها كلها..

وأمه، أم ابراهيم، تدور في أرجاء المنزل زائغة العينين، حائرة، لا يبدو عليها أنها تدرك ما تفعل..

كانت تستعرض أثاث بيتها، ومقتنياته، وتحفه البسيطة، وملابسها وملابس زوجها وولدها.. تقف أمام هذه القطعة، وتنتقل منها إلى قطعة أخرى، تستعرض ثوباً، أو تحنو بيديها على صورة فوتوغرافية معلقة.. وابراهيم متعلق بذيلها، يذهب معها حيث تذهب، ويقف معها حيث تقف، وينظر إليها، وإلى وجهها المخضل بالدموع، ويسمع نهنهاتها المكتومة التي كانت تطعن قلبه في إيلام شديد، وهو لا يكاد يدري ماذا يجري.. ولماذ هذا كله؟.. وما غايته؟.. ومتى نهايته؟.. إنه مذ نشأ لم ير مثل هذا الذي يراه هذه الأيام...

كلمة «النزوح» - التي لم يسمعها في حياته من قبل - تتكرر اليوم على كل شفة ولسان، ودير ياسين أصبحت أمثولة على فظاعة العدوان، وهو التدمير والقتل، وبيجين، قائد المعتدين على دير ياسين، أصبح يلقب بين أهالي عين كارم بالسفاح..

لماذا.. لماذا هذا كله؟...

إن ابراهيم الصغير لم يستطع العثور على جواب إلا بعد زمن طويل طويل..

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

ومدت أمه يدها إلى صورة جده الأكبر، المرسومة رسماً جيداً بالفحم، والتي يزيد عمرها في البيت عن قرن كامل ظلت الصورة خلاله في مكانها عبر من تعاقب على البيت من أبناء وأحفاد الجد..

كانت للمكان الذي علقت عليه الصورة طوال ذلك الزمن كله مكانة خاصة في نفوس السيدات اللائي تعاقبن على البيت، لقد بات مكان الصورة ثابتاً، ينزلنها عنه لكي يمسحن عنها الغبار بعناية، ثم يعدنها إلى مكانها..

الآن وقفت أم ابراهيم أمام الصورة حائرة.. هل تتركها وقد قيل لهم أن نزوحهم ليس لأكثر من أسابيع، أو أيام معدودات... أم تأخذها خوفاً عليها من الضياع... ترددت أم ابراهيم لحظات، ثم حزمت أمرها، وتناولت الصورة ووضعتها في الصندوق الخشبي الصغير الذي كانت تكدس فيه الأشياء التي ستأخذها معها... ووقفت أمام خزانة الملابس، وشعرت بقلبها يذوب حنيناً وحناناً عندما رأت ثوب عرسها الأزرق الذي قيل فيه أيامها أن أية عروس في عين كارم لم ترتد أثمن ولا أغلى منه.. لقد ضاق الثوب عليها كثيراً، ولم تعد تلبسه منذ زمن طويل، ولكنها ـ قط ـ لم تفرط به، ولم تسمح بأن يفارق بيتها، فكانت تعتني به باستمرار، وتحميه من «العث» بالنفتالين وتنفض عنه الغبار، وفي بعض الأحيان كانت ـ كما تفعل الآن ـ تتناوله برفق شديد، وتضمه إلى صدرها، وتحني خدها عليه في حنان،

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

وهي تتذكر الأيام السعيدة التي كان هذا الثوب بدايتها، بعد أن أصبحت زوجة لأبو ابراهيم..

وأعادت أم ابراهيم الثوب إلى مكانه، فهي لن تستطيع الاستفادة منه بشيء الآن، وهمت بأن تنتقل إلى مكان آخر من البيت لتنتقي ما سوف تأخذه معها، ولكنها شعرت بأنها تترك فلذة من قلبها وكبدها، فمدت يدها بعزم وأنزلت الثوب ودسته في الصندوق الخشبي...

كانت، مع ما هي فيه من شرود وقلق وخوف، تكاد لا تعرف التمييز بين ما يجب أن تأخذه وما يجب أن تتركه... لقد شعرت بأنه لا يمكنها الإستغناء عن شيء أبداً... كل قطعة في البيت إنما هي جزء من تاريخه وذكرياته... فهي - إذن - جزء منها ومن ذكرياتها...

وكان هذا أشد وأصعب ما عانت منه وهي تختار ما سوف تأخذه معها عند نزوحها الذي قيل لها أنه لن يطول...

وأغلقت الصندوق أخيراً، وساعدها ابراهيم في ذلك بكل قواه، ثم حملاه ليلقيا به في سيارة الشحن الصغيرة التي اعتاد أبو ابراهيم أن يستخدمها في عمله، والتي تطوع الآن أحد الرجال ليقودها إلى القدس...

وكانت البلدة كلها في حركة مماثلة، فما ترى سوى أبواب تفتح، ونساء يحملن ما استطعن اختياره من محتويات

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

بيوتهن، وكانت هذه الأشياء تكدس فوق بعضها في السيارة العجوز، صرر، صناديق، أكياس من مختلف الأنواع والأحجام . . .

ومضت ساعات النهار على هذا الحال، وحاييم قابع في منزله، ينظر من وراء الستارة المغلقة، وفي متناول يده بندقيته، وخياله يراودآفاقاً شريرة، يتخيل فيها كيف سيصبح هو سيد بيت أبو ابراهيم، ويعيد ترتيب البيت وتقسيم غرفه على هواه وبما يلائم رغباته وذوقه . . .

ومن الغريب ـ أو لعله ليس غريباً ـ أن أي شعور بالشفقة أو الذنب لم يخالج فكره، ولا نقول ضميره، قط . . .

لقد نسي ماضيه كله، وهو يعيش في البلدة كأنه واحد من أبنائها، مع أنه لم يكن سوى متسلل، جاء من إحدى دول البلقان في أعقاب الحرب العالمية الأولى . . . إن أحداً ما من أهل القرية لم يسيء إليه قط، بل بالعكس، كانوا أثناء الإضطرابات والثورات والمظاهرات، يحمونه، ويكفلونه، ويؤكدون للثوار الغاضبين أنه إنسان مسكين مسالم وأنه لا يليق بالشرف العربي أن يخذلوا إنساناً لجأ إلى حماهم حتى ولو كان يهودياً . . .

لقد نسي حاييم ذلك، وهو يتخيل ـ من وراء النافذة المغلقة ـ كيف سيكون حاله في البلدة بعد أن يهجرها أهلها العرب، ويأتي المغتصبون اليهود ليسكنوها، فهو ـ بدون

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

ريب ـ سيكون عمدة البلدة، أو المختار كما يقول العرب، فهو أقدم ساكن فيها، وهو أكثر الناس خبرة بها، وليس هناك من هو أحق منه بأن يكون العمدة..

وابتسم حاييم عندما وصل بأفكاره إلى هذا الحد، وراح يقرر ـ بصفته عمدة البلدة ـ كيف سيأمر بهدم مساجد البلدة، وإقامة كنيس كبير، وإلغاء المدارس العربية لأنه لن تكون هناك حاجة إليها، إذ سيكون التدريس بعد ذلك بالعبرية... وقبل أن يسترسل في خواطره وأفكاره هزّ المنزل من أركانه صوت طلقة مدفع مفاجئة..

* * *

موكب النزوح البائس الطويل قد أوشك على الوصول إلى القدس..

ثمانية كيلومترات، بدت للنساء والشيوخ والأطفال السائرين على أقدامهم وكأنها ألف ألف كيلو متر...

والسيارة العتيقة، التي تحمل متاعهم البائس القليل، تسير ببطء في مقدمتهم، وأم ابراهيم ممسكة بيد ولدها والبكاء الصامت تنم عنه عيونهما التي كانت تسيل منها خيوط متواصلة من الدموع..

كم كان الفراق صعباً ومؤلماً..

كان أبو ابراهيم في قمة رجولته وصلابته وهيبته، وهو يضم

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

زوجته إلى صدره مودعاً دون أن يتخلى عن الرشاش الخفيف ـ من طراز «تومي» ـ الذي كان يحمله، وكذلك عندما ودع ولده ابراهيم..

لقد أقعى على الأرض وراح يخاطب ابراهيم والكلمات تتدافع من فمه بقوة، وكأنه يخاطب رجلاً مثله:

ـ اسمع يا ابراهيم.. أنت منذ الآن رجل العائلة.. ولا أقول رجل البيت... لأنه لا يعلم إلا الله ماذا سيحل بالبيت... لقد قلتها من قبل وها أنا أنفذ ما قلت.. هنا أحيا وهنا أموت.. إنني، يا بني، لا أثق كثيراً بما يقال عن العودة بعد عدة أيام أو أسابيع... العودة تقوم بها أنت.. أنت يا رجل العائلة.. سأموت أنا بكل تأكيد.. ربما اليوم.. ربما غداً.. ولكن المعتدين لن يدخلوا عين كارم إلا على جثتي.. سأذهب أنا إلى خالقي.. وتذهب أنت وأمك إلى حيث لا أدري... ولكنني أريد أن أقول لك: إياك، ثم إياك، ثم إياك ـ يا ولدي ـ أن تتخلى عن رغبتك في العودة إلى بلدك.. وأرضك.. وبيتك.. مت عند عتبة بيتك وأنت تحاول العودة إليه، أشرف لك ـ ألف مرة ـ من أن تموت في أي مكان آخر... لقد استلمت أرضنا وبيتنا أمانة من أجدادي وأجدادك.. وهما منذ الآن أمانة في عنقك أنت.. أنا سأموت لكي أؤدي الأمانة.. وعليك أنت أن تعيش لكي تستعيدها..

إياك يا ولدي أن تنسى بلدك.. وأرضك.. وبيتك...

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

ونهض أبو ابراهيم، وقد تحجرت ملامح وجهه في صورة بدت لأم ابراهيم بطولية بل خارقة البطولة.. فهذا هو رجلها، يقف الآن على مفترق حاسم من حياته وحياة أسرته، وإنها لتعلم ـ ودون أن يكون لديها أدنى أثر من الشك ـ أنها لن ترى أبو ابراهيم بعد الآن.. ولو كان الأمر متوقفاً عليها لماتت معه، ولرفضت أن تتزحزح أنملة واحدة خارج البيت، ولكن الطفل، أمل الأسرة ورجلها وحامل اسمها، هو الذي يفرض عليها أن تعيش من أجله، وأن تغادر البلدة، برجاء أن تحميه من الهول الذي لن تلبث البلدة أن تعيشه، والذي يتوقعه الجميع في أية لحظة..

ونظرت أم ابراهيم إلى الخلف، ومن خلال دموعها، رأت الرجال منهمكين في اتخاذ المواقع، وإقامة المتاريس، وتوزيع المدافعين، انتظاراً للغاصبين الذين لم تمض على مجزرتهم ضد دير ياسين أكثر من ثلاثة أسابيع أو أربعة..

* * *

وطار الإنتظار للمعركة المرتقبة..

ومع أن رجال عين كارم لم يكونوا يعرفون سبب هذا التأخير بالضبط، إلا أن اليهود كانوا يعرفونه، ويعرفونه جيداً، فهم لم ينسوا بعد قسوة الضربة التي أصيبوا بها عندما حاولوا، قبل أسابيع، التسلل عبر بساتين الزيتون، والمقاومة العنيفة التي قوبلوا بها، والتي لم يقل لهم حاييم عنها شيئاً، ولم

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

يحذرهم منها.. لأنه لم يكن يدري عنها شيئاً بموجب تعليمات أبو جميل..

ولهذا اكتفوا بمحاصرة البلدة من معظم جهاتها، وتركوا طريق القدس مفتوحاً، لكي يخرج منه أهل البلدة، أو بالأصح لينزحوا عنها، وراحوا يطلقون بين الحين والآخر، طلقة هنا وطلقة هناك.. في محاولة لجس النبض ومعرفة مدى استعداد البلدة لمقاومتهم... وبطبيعة الحال لم يغب أمر حاييم عن بال أهالي ابلدة، بل بحثوا أمره مراراً، وتفاوتت في هذا الصدد آراؤهم..

أبو ابراهيم ـ مثلاً ـ صارح زملاءه بأنه لم يعد يثق بحاييم كما كان يفعل من قبل، وأن شعوراً داخلياً عميقاً يهيب به أن يحذر منه...

آخرون قالوا عكس ذلك.. وطالبوا أبو ابراهيم بالدليل، ولكنه لم يكن يملك دليلاً، كانت هناك مشاعره الشخصية ليس غير..

وقال أبو سالم لزملائه:

ـ اسمعوا.. إنني أرى أنه ليس لديكم أي دليل على أن الرجل قد خان الثقة التي وضعناها فيه.. صحيح أنه يهودي.. وأننا لا نأمل ـ ولا نطلب ـ منه أن يتعاطف معنا، ولكنني أقول لكم الحق، وهو أننا لم نر من الرجل ما يريب.. إنه ما زال كما عهدناه منذ عشرات السنين.. بل إنني لأصارحكم القول

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

بأنني بت أشعر بالخجل حين أرى الرجل قد لاحظ ابتعادنا عنه، وعدم انفتاحنا عليه كما كنا في السابق.. ولذا أرى أن نترك الرجل وشأنه..

وعلق أبو ابراهيم على كلام أبو سالم متسائلاً ببطء:

ـ هل هو على استعداد لأن يقاتل معنا ويدافع عن البلدة؟..

فرد أبو سالم حائراً:

ـ لست أدري.. لم لا تسألونه.. على كل حال الكلمة الحاسمة هي للأخ أبو جميل..

واتجهت الأنظار إلى أبو جميل الذي بدا عليه وكأنه قد درس الموضوع سابقاً واتخذ فيه قراراً، إذ رد على الفور وهو يفتل شاربه كعادته:

ـ الواقع أنه لا يجوز لنا، من الناحية العسكرية، أن نترك بين صفوفنا رجلاً من الأعداء.. وقد دلتني تجربتي على أنه قد يجوز أن يغير الذئب جلده، ولكن اليهودي لا يتخلى عن طباعه المعروفة أبداً...

فأشرق وجه أبو ابراهيم قائلاً بلهجة انتصار:

ـ ألم أقل لكم؟.. هه.. أكمل كلامك يا أبو جميل...

واستطرد أبو جميل:

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

ـ ولكن.. من ناحية أخرى.. لا نستطيع أن نظلم الرجل.. أو لا نريد أن نظلمه.. ولكم أنتم أن تقرروا ما ترون بشأنه.. فأما أن يذهب إلى قومه.. وأما أن يبقى هنا في بيته ونغلقه عليه... ولو سألتموني عمّ أفضل لقلت لكم إنني أفضل أن يتركنا ويذهب إلى قومه، وبمجرد خروجه، نغير مواقعنا كلها، ونعيد ترتيب قواتنا من جديد...

ولم يتكلم أحد، فالكلمة الفاصلة دائماً لأبو جميل بحكم مركزه كقائد عسكري للبلدة..

وتكلم نمر بلهجته المتحمسة المعتادة:

ـ لم لا نقتله؟..

وسرت همهمة بين الحاضرين.. فهذا الإحتمال لم يرد يخاطر أحد منهم..

وتساءل أبو سالم بدهشة:

ـ نقتله؟..

ـ أجل.. لقد قتل لنا قومه مائتين وخمسين نفساً في دير ياسين، بين امرأة وطفل وشيخ، أفكثير علينا أن نثأر لقتلانا بأربعة أشخاص هم الآن في قبضة أيدينا؟..

وما كان أشد دهشة الحاضرين حين انبرى أبو ابراهيم نفسه يستنكر الإقتراح ويرفضه:

ـ لا.. لا.. هذا لا يتفق مع الأخلاق العربية، الرجل،

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

مهما يكن من الأمر، ضيفنا.. وقد عاملناه وكأنه واحد منا.. وإذا كنا لا نثق فيه، فهذا لا شيء.. أما أن نقتله فهذا شيء آخر.. شيء آخر لا أوافق عليه..

وعادت الهمهمة تسري بين الحاضرين، وكل منهم يحاول أن يحصل على موافقة الآخرين.. بين أن يدعوا حاييم بين أظهرهم.. أو أن يخرجوه من البلدة.. أو.. أن يقتلوه..

وحسم أبو جميل الكلام قائلاً بلهجته المتمهلة:

ـ كفى يا جماعة.. لقد أخذ منا الموضوع من وقتنا أكثر مما يجب.. أحسن ما نفعله هو أن نبعث به إلى قومه وننفض أيدينا منه...

* * *

ـ حاييم.. تعال.. تعال..

صرخت زوجة حاييم برعب قاتل وهي تختلس النظر من النافذة، إذ كانت تتناوب مع زوجها وولديهما النظر من وراء الستارة المسدلة.

وطارت نفس حاييم شعاعاً وهو يلمس رنة الذعر في صوت زوجته، فجرى مسرعاً، واختلس نظرة من النافذة، فأحس بقلبه يكاد يتوقف من الخوف..

ـ إنهم قادمون...

قالت الزوجة ذلك، والرعب يهزها من قمة رأسها إلى

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

أخمص قدميها.. وأردفت:

ـ ماذا ستفعل؟.. ماذا ستفعل؟..

وارتسمت ابتسامة باهتة على شفتي حاييم وقال لزوجته:

ـ خبئي السلاح في الحال.. وتصرفوا جميعاً بشكل طبيعي..

وسأله يوري بسذاجة:

ـ هل سيقتلوننا يا أبي..

ـ إذا تصرفتم كما يجب أن تتصرفوا، فلن ينالكم سوء...

وسمع بعد لحظات صوت طرق، فقام بهدوء، وفتح الباب، ليرى جمعاً من أهالي البلدة يتقدمهم أبو جميل وأبو ابراهيم...

ومع أن الرعب كان قد أخذ منه كل مأخذ، فإنه تمالك نفسه، وتظاهر بالبراءة والمرح وقال:

ـ أهلاً وسهلاً.. أهلاً وسهلاً.. تفضلوا.. تفضلوا..

ودخل الرجال وهم يتبادلون النظرات، وكل منهم يستوحي من رأيه الخاص في الرجل رأياً في طريقة استقباله هذه...

ورحبت بهم زوجته، فجلسوا، وجلس حاييم تجاههم وهو لا يزال يردد عبارات الترحيب..

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

وساد صمت تام في الغرفة بعد ذلك.. فالرجال ينظرون إلى حاييم صامتين، وهو يدير بصره فيهم بارتباك...

ثم قال اليهودي:

ـ عاش من شافكم.. مضت مدة طويلة لم نركم فيها..

فقال له نمر ببرود:

ـ ونحن أيضاً لم نرك.. ومن يحب إنساناً فإنه يسأل عنه...

ورد حاييم بلهجة بريئة:

ـ لقد قلت في نفسي أنكم تعرفون أو تخمنون سبب انقطاعي عنكم.. إنني في الحق أشعر بالخجل من.. من ذاك الذي حدث في دير ياسين وغيرها.. فمن جهة ليس بإمكاني أن أصنع شيئاً، ومن جهة ثانية لم يعد بوسعي أن أرفع عيني في وجه أحد منكم..

ويبدو أن إجابة حاييم قد تركت في نفوسهم أثراً طيباً، فالرجل يتكلم بطريقة منطقية ولهجته كلها براءة.. ولكن شيئاً من الشك كان لا يزال يساور إثنين: أبو ابراهيم، ونمر..

وعبّر أبو ابراهيم عن ذلك بقوله له:

ـ لقد سبق لك أن اقترحت عليّ مغادرة البلدة فهل كنت تعلم بأن ذلك سيحدث...

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

ـ أنا؟ . .

هتف اليهودي ببراءة وهو ينحني على أبو ابراهيم واستطرد:

ـ أبداً . . أبداً . . كل ما في الأمر إنني كنت أستنتج من الوقائع وأستقرىء الأحداث . . بل إنني كنت أنوي مغادرة البلدة معك لو وافقت على اقتراحي . . .

مرة أخرى استطاع اليهودي أن يرد بصورة مقنعة، ولكن نمر لم يقتنع:

ـ اسمع يا حاييم . . إننا كما ترى سوف ندافع عن بلدتنا حتى آخر رجل . . لن نسمح بأن يقع لنا مثل الذي وقع في دير ياسين . . فهل . . أنت على استعداد لتقاتل معنا؟ . .

وبدا للحضور أن نمر قد نجح في وضع حاييم في موقع صعب، فاعتدلوا جميعاً في جلستهم، وركزوا أبصارهم عليه يريدون أن يسمعوا جوابه، وكان حاييم نفسه يشعر بأنه قد أحرج، فقال لنمر:

ـ يا ولدي يا نمر . . أنا ابن هذه البلدة قبل أن أكون أي شيء آخر . . وأنا على استعداد لأن أفعل كل ما تطلبونه مني . . ولكنني، لسوء الحظ، لا أجيد استعمال السلاح . . . ولا أذكر أنني أمسكت بندقية، بل مسدساً، طول حياتي . . .

ـ ندربك . . .

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

أجابه نمر بهدوء.. فهز حاييم رأسه، وقلب يده باستسلام وقال:

ـ كما تريدون...

وهنا تنحنح أبو جميل متدخلاً في الحديث، وقال لحاييم:

ـ أصغ إليّ يا صاحبي.. صحيح إنك، كما قلت، ابن البلدة، ولكننا ـ كما تعلم ـ أصحابها الأصليون.. وأعتقد أننا سنخرجك بدون مبرر فيما لو اشتركت معنا في القتال... كما أنه لا وقت لدينا كي ندربك.. وأرجو عفوك إذا قلت لك أننا نقترح عليك مغادرة البلدة..

ـ أغادر.. البلدة؟..

همس حاييم بذهول، إذ لم يخطر له مثل هذا الحل على بال..

ـ أجل.. تغادرها إلى حين.. وتعود إليها عندما تهدأ الأحوال..

ولم يكن أمام حاييم خياراً آخر، فهز كتفيه وهو يقول:

ـ إذا كانت هذه رغبتكم فلا مانع عندي.. ولكنني أرجوكم ألا تسيئوا بين الظن..

ـ لو كنا نسيء بك الظن لما كلفنا قتلك أكثر من «تعريفة»

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

ثمن رصاصة واحدة.

وبلع حاييم ريقه، ونهض وهو يحاول أن يتماسك وقال للرجال:

ـ على رسلكم إذن.. أرجو أن تمهلوني يوماً واحداً..

* * *

في حي البقعة، في القدس الجديدة، كانت الخواطر والمشاعر كلها مشدودة إلى عين كارم، فإن معظم أهلها، من النساء والأطفال والشيوخ، قد سكنوا في هذا الحي، دون أن يخطر ببالهم أن يفكروا في غير موعد العودة القريب إلى عين كارم...

كانت أفئدة النساء تتصدع قلقاً وألماً على الرجال الذين تركنهم هناك.. وكن يحاولن تسقّط الأنباء من مختلف المصادر.. ولكن أياماً عديدة مضت دون أن يأتي عن عين كارم، أو منها، أي خبر..

وكانت أم ابراهيم تجلس طوال نهارها على جانب من طريق القدس ـ عين كارم، وإلى جانبها ولدها الصغير، وعيناها مسمّرتان نحو الأفق الذي ينتهي عند عين كارم..

كانت تريد أن تعرف قبل غيرها ما جرى، مما هو متوقع أن يجري..

كانت الشائعات كثيرة، وكثيرة جداً، وكانت أخبار

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

الأحداث تتوارد كل لحظة تقريباً.. وكان معظمها ـ فيما يتبين بعد ذلك ـ غير صحيح.. إلا أن الأذهان كانت مهيأة لسماع أي شيء، وتصديق أي شيء، وتكذيب أي شيء أيضاً...

كانت «الحرب» قد بدأت.. ونشبت المعارك في كل مكان من أرض فلسطين، من أقصى شمالها إلى أقصى جنوبها، ومن أقصى شرقها إلى أقصى غربها.. والتصقت آذان الناس بأجهزة الراديو تحاول أن تعرف منها شيئاً، وتحاول ـ خلال ذلك ـ تمييز الصدق من الكذب، والصواب من الخطأ...

ومضت أسابيع، وليس هناك أي خبر تقريباً عن عين كارم بالذات، ولكن أم ابراهيم لم تغير شيئاً من عادتها اليومية بالجلوس عند الطريق الذي يصل بين القدس وبلدتها، علّها تسمع ولو خبراً واحداً يطمئنها ويسكن مخاوفها..

لقد باتت، لكثرة ما تراوحت أحاسيسها ما بين التفاؤل والتشاؤم، لا تكاد تفرق بينهما.. بل إنها كانت تصارح نفسها ـ بشجاعة غريبة ـ أنها ستكون أكثر دهشة لو جاءها نبأ بأن زوجها ما زال حياً، فهي تعرف رجلها، وتذكر القسم الذي ردده أكثر من مرة أمامها وأمام سواها، وهو أن يعيش في عين كارم ويموت في عين كارم، وما كان أبو ابراهيم بالذات يحنث بيمين أقسمه.. وانتهت هواجسها، بعد ذلك، حين جاءها النبأ اليقين...

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

كانت جالسة في مكانها المعتاد تنظر إلى بعيد، وبجانبها ابراهيم، حين رأت على مرمى النظر ـ جهة البلدة ـ شبحاً بدا لها أسود في الظلام الذي بدأ يسدل أستاره، كان شبح إنسان، يتحامل على نفسه مترنحاً، يقف تارة ويسقط أخرى، ويلوح بيديه تارة ثالثة..

وقد استطاعت أم ابراهيم أن تحدس أنه عربي، من ملابسه، وخاصة كوفيته وعقاله، فهبت واقفة، وأسرعت الخطى نحوه إلى أن وصلت إليه، ولم تكد تره وتتعرف عليه حتى شهقت شهقة قوية وقالت:

ـ من؟.. نمر؟...

ونظر إليها الشاب الذي كانت الدماء تملأ وجهه كله، كما كانت تنزف من ساقه اليسرى، وقد تلطخت ملابسه بالوحل والدم، وتمزقت.

وحاول نمر أن يتكلم، فتح شفتيه وتحشرجت في حلقه بضع كلمات، ثم لم يلبث رأسه أن سقط إلى جانبه، فصرخت أم ابراهيم إذ حسبت أنه مات، فوضعت باطن كفها أمام أنفه ـ كعادة القرويين في معرفة المشكوك في موتهم ـ وسرعان ما رفعت رأسها إلى السماء حامدة شاكرة، ذلك أن أنفاس المصاب الحارة كانت تتردد بصعوبة..

ونهضت أم ابراهيم مسرعة إلى قربة الماء التي اعتادت أن تأخذها معها كل يوم. فسقته، ومسحت له وجهه بالماء في

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

حين طار ابراهيم مسرعاً، بناء على أمر من أمه، ليأتي بمن يسعفون الجريح الذي لم يروا سواه من أهل البلدة المحاصرة...

* * *

فتح نمر عينيه بصعوبة، وأجالهما فيما حوله دون أن يبدو عليه أنه عرف المكان الذي هو فيه...

كان يرى حوله وجوهاً مختلفة، لرجال ونساء وأطفال، يحدقون فيه، ويرقبونه بلهفة، وقد خيم الصمت عليهم..

ولكن نظراته لم تكن تدل على أنه يميز المرئيات أمامه، فهي فارغة، تنظر إلى لا شيء، وتدور في أرجاء المكان بلا هدف...

وشيئاً فشيئاً بدا عليه أنه قد بدأ يعود إلى وعيه، أحس بالفراش الوثير الذي مدد عليه، والملابس النظيفة التي ألبسوه إياها، والضمادات الطبية التي ضمدوا بها جراحه..

وسمع صوتاً نسائياً يهمس بخفوت:

ـ الحمد لله.. يبدو أنه قد بدأ يرانا...

ونظر إلى المتكلمة، وكانت أم ابراهيم، واغتصب ابتسامة واهنة، وحرك شفتيه عدة مرات ليتكلم ويقول بصوت مرتجف:

ـ شكراً لكم.. لقد.. أسعفتموني في الوقت المناسب..

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

ولعل المجهود الذي بذله في الكلام قد أرهقه، فهو قد أغلق عينيه على الفور، واسترخى جسده حتى حسبه الحاضرون قد مات، فارتفعت شهقات الذعر، ولكن أم ابراهيم أكدت لهم أنه قد أغمي عليه فقط... وأن عليهم أن يتركوه مستريحاً بضعة أيام، قبل أن يستمعوا إليه، ويعلموا منه ما آل إليه مصير أولئك الرجال الذين تركوهم في عين كارم...

ومنذ أن أتى نمر لم تعد أم ابراهيم تخرج إلى الطريق منتظرة أحداً يأتي من جهة عين كارم.. لقد اقتصر اهتمامها الآن على ولدها والمريض... وانشغل فكرها في الخطوة التالية..

كان حي «البقعة» الذي يقوم في القدس الجديدة على مقربة من فندق الملك داود الشهير، منطقة عسكرية يسيطر عليها البريطانيون الذين كانوا قد بدأوا بالإنسحاب تدريجياً من فلسطين، ووفقاً للمخطط الموضوع لتنفيذ مشروع تقسيم فلسطين..

وكانت العمليات العسكرية قائمة على قدم وساق من جميع الأطراف، ليل نهار من غير انقطاع، وكان للحي أيضاً نصيبه من القنابل والقذائف، والعمليات الهجومية، وعمليات النسف والتخريب..

كانت المنطقة مسرحاً لعمليات قوات عربية ويهودية وبريطانية عديدة... كل منها تعمل ضمن أهدافها، فتصطدم

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

القوات العربية أحياناً بالبريطانيين وتقاتلهم وتصطدم القوات اليهودية بالعرب تارة وبالبريطانيين تارة أخرى. . . ويصطدم البريطانيون ـ بدورهم ـ بالطرفين الآخرين، ويقاتلونهم، فكان الموقع الواحد يسقط في أيدي جميع الأطراف على التوالي، يستولي عليه طرف، فينتزعه الطرف الآخر، فيشن الطرف الثالث هجوماً عليه وهكذا. . .

كان الرعب، والموت، والدمار، والفزع، والرصاص، والقنابل، والحرائق، والتخريب، والألغام، كلها ظواهر عايشها الناس في حي البقعة كما عايشها الجميع في مختلف مناطق فلسطين. . .

وكثيراً ما كانت عائلات عين كارم تجتمع لتبحث أمورها، وتحاول أن تتلمس طريقها وسط هذه الأهوال. .

كانت العودة الموعودة إلى البلدة غير ممكنة البتة، خلافاً لما كان عليه الأمل يوم النزوح. . .

كانت المشكلة ـ الآن ـ هي تحديد النقطة التالية للنزوح، إذ أن تصاعد العمليات العسكرية في القدس، وخاصة القدس الجديدة، يجعل من المستحيل عليهم البقاء فيها. . .

كانت القدس الجديدة عربية في معظمها، كما قلنا، وكان أصحاب معظم عماراتها الفخمة، ومنشآتها الحديثة هم من العرب، ولم يكن لليهود فيها سوى أيسر نصيب خلافاً لادعاءاتهم ومزاعمهم. . .

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

ولكن القدس الجديدة كانت من نصيب اليهود بموجب مشروع التقسيم الذي يجري تنفيذه بمساعدات فعالة غير محدودة من قبل السلطة البريطانية، ولذا فقد كان نصيب القدس من الهجمات الشرسة المتوالية عظيماً ومستمراً، الأمر الذي جعل أم ابراهيم تقرر النزوح مرة أخرى من القدس الجديدة. . . وأبلغت ولدها ابراهيم بقرارها هذا، فنظر إليها نظرة فارغة وقال:

ـ ولكن. . ألم تقولي لي أننا سنعود إلى بلدتنا؟. .

وأشاحت الأم بوجهها كيلا يرى ولدها الدموع المتحجرة في عينيها وقالت وهي تتنهد:

ـ ليس يدري مصيرنا إلا الله يا ولدي. . . بالأمس نزحنا عن عين كارم. . . وغداً سننزح عن القدس. . ومن يدري إلى أين سننزح بعد ذلك. . .

وشعر ابراهيم بيد باردة تعتصر قلبه بقوة وعنف. . . لقد داخله ـ لأول مرة في حياته ـ رعب حقيقي، وشعور بأنه وحيد في هذه الدنيا، وأنه ليس له من يحميه بعد الآن. . . وأن أياماً عصيبة. . عصيبة جداً. . تفتح ذراعيها له، لكي تضمه إليها، وتعتصر كل قطرة من دمائه، وحياته، ومستقبله. . .

* * *

ـ ألف حمد لله. . . أنت اليوم، ما شاء الله، أحسن بكثير. . .

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

ـ شكراً لك يا خالتي أم ابراهيم.. هذا بفضل الله ثم بفضل رعايتك لي..

ـ استغفر الله يا ولدي.. أنا لم أفعل شيئاً..

دار هذا الحديث بين أم ابراهيم ونمر، وكان ابراهيم كعادته، يصغي إلى الكلام، فيسمعه ولكنه لا يفهم مضمونه، فهو ـ حتى الآن ـ لم يفهم أسباب ما حدث.. ولا هو عرف حقيقته.. فقد سمعهم يقولون أن خروجهم من عين كارم هو خروج مؤقت، وأنهم لن يلبثوا أن يعودوا، وها قد مضى ـ في نظره ـ زمن طويل ولم يتحركوا من أرضهم الجديدة في القدس، ينامون ويستيقظون على أصوات الإنفجارات والقنابل، وأخبار القتل والتقاتل، وأنباء الإنتصارات والهزائم، ولقد عجز ـ رغم كل ما بذل من جهد ـ عن أن يفهم من الذي يقاتل من، ومن الذي انتصر على من، ومن الذي هزم من...

وهناك أيضاً مسألة حيّرته وتحيره كثيراً، وهي مسألة أبيه... أين هو؟... لماذا بقي في البلدة وتركهم يخرجون، ولم أبطأ في اللحاق بهم كما كان ابراهيم يتمنى؟..

ونمر.. هذا الشاب المتوثب بالحماسة والحيوية، والمعروف في البلدة كلها باندفاعه وشجاعته، ما الذي أصابه؟ ومن الذي أصابه؟ حتى بات طريح الفراش، مربوطاً

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

بالضمادات والقلوب من حوله والهة واجمة، ترقب حالته الصحية في قلق وانفعال...

كل هذا، وغيره، لم يفهمه ابراهيم في حينه، ولا وعى مدلولاته وخلفياته، كان أشبه ما يكون بمن يشاهد فيلماً سينمائياً ناطقاً بلغة لا يفهمها.. يرى المشاهد، ويسجلها في ذاكرته الغضة بكل تفاصيلها، من غير أن يدري أسبابها، وعواملها...

وجذبت الأم كرسياً، وضعته بجانب سرير نمر، وأسندت مرفقها إلى فراشه، وابراهيم لا يزال متعلقاً بثوبها، وقالت لنمر بهدوء تام، ومن غير أن تظهر في صوتها نبرة انفعال واحدة:

ـ والآن يا نمر.. قص عليّ ما حدث...

وغام وجه الشاب، وظللته سحابة كثيفة من الكآبة إذ عادت الذكرى إلى خاطره، وأدار وجهه إلى الناحية الأخرى دون أن ينطق بكلمة واحدة...

وبنفس الصوت الهادىء عادت أم ابراهيم تقول له:

ـ لا تدر وجهك.. وانظر إليّ.. لقد سألتك سؤالاً وأريد جوابه...

ـ ألا نترك هذا الحديث يا خالة أم ابراهيم؟.. أنت تعرفين النتيجة.. ولا يهمك أن تعرفي كيف...

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

ـ بل يهمني جداً.. أنا أعرف أن رجلي قد رحل، شعرت بهذا منذ أن ودعته آخر مرة، وكنت على يقين من أنني لن أشاهده مرة أخرى.. إنني أعرف هذا يا نمر.. ولست أطلب منك أكثر من أن تقول لي كيف...

وأغمض نمر عينيه، وقطب جبينه، وكأنه يريد أن يستعيد الذكرى الأليمة، مع أنه ـ في الواقع ـ كان يريد أن يبعدها عن ذاكرته فهي لم تبرح هذه الذاكرة قط، وما زالت تلح عليه في يقظته ومنامه..

ـ هه.. إنني أنتظر..

قالت المرأة الشجاعة هذه الجملة، وهي تنظر إلى نمر نظرة أدرك معها أن لا سبيل إلى التهرب من الجواب..

والتقط نمر نفساً عميقاً، ثم أخذ يروي القصة...

ـ قد تدهشين يا أم ابراهيم لو تعلمين كم آرقني سؤال كان يلح عليّ باستمرار... وهو: هل كان علينا أن نقتل حاييم أم أننا لم نخطىء حين طلبنا إليه بمنتهى اللطف أن يغادر البلدة إلى حين...

ـ حاييم؟... وما شأن حاييم في الأمر...

ـ كل الشأن.. بل إنني أعتبره نموذجاً لكل يهودي دخل فلسطين... كان، كما تعلمين، مثالاً في التهذيب، واللطف، والبعد عن المشاكسة، يعايشنا ويحاول أن يندمج

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

فينا، ولكنه ـ أبداً ـ لم يكن معنا.. كان يتظاهر بالبراءة والمسكنة، وهو يخفي تحت إهابه ذئباً ذا أنياب حادة.. قال لنا أنه لم يمسك سلاحاً في حياته كلها.. وليتك رأيته عندما كان في صفوف المهاجمين يعمل على مدفع رشاش وكأنه جندي قضى حياته كلها وراء ذلك المدفع..

لست أدري ما أقول يا أم ابراهيم، لقد خلقنا الله قوماً يحترمون الشرف، ويقدرون الشهامة، يأوون الضيف، ويكرمون الغريب.. هذه كانت على الدوام أخلاقنا وشيمنا.. وكنا فخورين بها باستمرار، ونعتبرها مُثُلاً نموذجية للأخلاق الحقيقية... بل كنا نعتبرها هي ـ ذاتها ـ الأخلاق...

إننا، يا أم ابراهيم، لم نغدر يوماً، ولم نطعن أحداً في الظلام، ولا خنّا الأمانة، ولا خفرنا ذمة، ولا روّعنا آمناً... كنا نعتبر هذه الصفات عاراً نربأ بأنفسنا أن يلصق بنا... والآن هأنت ترين.. نحن، أصحاب الأرض قد هجرنا أرضنا مكرهين، بشرفنا وشهامتنا، وأخلاقنا، ومناقبنا، واغتصب الأرض الكذابون و المخادعون والغادرون، والطاعنون في الظلام... آه يا أم ابراهيم... لو أننا عاملنا اليهود كما عاملونا، فلربما تغيرت الأمور كثيراً...

ـ يا نمر.. يا ولدي.. كل يعمل بما فطر عليه.. ونحن ما زلنا نعتز بأخلاقنا ومناقبنا، فلا تخلط الأمور

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

ببعضها، ولا تدع للشك أو اليأس سبيلاً إلى نفسك.. هيا.. قل لي ما حدث...

ـ إنك تستطيعين استنتاجه بنفسك.. فلقد أطال العدو الحصار، كان فيما يبدو خائفاً من اقتحام البلدة بعد الذي ناله منا من قبل.. وكنا نحن قد اتخذنا كل ما استطعنا من عدة.. كنا نبدل مواقعنا باستمرار خوفاً من أن يكون العدو قد عرفها... وظللنا من اليوم الأول، وحتى اليوم الأخير، على أتم ما ينبغي من الاستعداد واليقظة... ثم...

ثم بدأ الهجوم...

تماماً كما بدأ في دير ياسين.. مع الخيوط الأولى للفجر..

وهببنا ندافع عن كل شبر.. نهلل ونكبر كلما أصبنا إحدى مصفحات العدو، أو أسكتنا أحد مرابض مدفعيته.. وكان الحاج.. أعني أبو ابراهيم.. أعني.. المرحوم الحاج أبو ابراهيم، كالليث الهصور، يطلق عليهم مدفعه الرشاش فيحصدهم حصداً.. فيتراجعون ويسود الهدوء بضع ساعات، ثم لا يلبثون أن يعاودوا الهجوم بقوات أكبر ومصفحات أكثر.. ولقد رأيت بعيني هاتي، ابن بلدتنا المسالم المسكين «حاييم» وهو يجلس وراء مدفع رشاش فوق إحدى المصفحات، ويوجه نيرانه نحونا... نحو البلدة التي آوته نيفاً وربع قرن، والقوم الذين عاملوه كواحد منهم

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

ماذا جرى لأبيه.. ولا ماذا فعل «عمو حاييم» ببيتهم.. ولكن الإثنين ـ وقد ورد ذكرهما مراراً في حديث نمر ـ هما ما يهمانه، وهما ما يريد أن يستزيد من المعلومات عنهما.. وكعادته التي ألفها كلما أراد أن يجتذب انتباه أمه إليه، جذب طرف ثوبها وهو يقول لها متسائلاً:

ـ أماه.. أين أبي؟..

ورفعت المرأة رأسها، ونظرت إلى طفلها وقالت له بهدوء زلزل كيان نمر وجعل القشعريرة تسري في جسده:

ـ لقد مضى..

ـ إلى أين؟..

ـ سافر...

ـ إلى أين؟..

ـ إلى مكان بعيد..

ـ ومتى يعود؟..

وهنا لمعت عينا المرأة ببريق خاطف، وأمسكته من كتفيه وقالت ببطء:

ـ يعود عندما نعود نحن إلى بيتنا...

ـ ومتى نعود؟..

ـ عندما تقرر أنت أن تعود...

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

عندما جاء بلدتهم بائساً، فقيراً، مشرداً...

لقد أدى كل من رجال البلدة دوره على أفضل ما يكون الأداء، ولقد رأيت الحاج، يرحمه الله، وهو يحمل كمية من القنابل اليدوية، ويهجم بها على بعض مصفحات العدو، يلقيها - بشجاعة خارقة - من داخل أبراجها، لتنفجر في مثل هزيم الرعد، وليستشهد غالياً، بعد أن كبد العدو خسائر لم يكن يتوقعها.. لقد كان الجميع هكذا.. حتى أنا ما كنت أظن أنني أنجو من تلك المجزرة.. فلقد أصبت عدة مرات، وفقدت وعيي عدة مرات، ولكنني كنت أجدني أقاتل مرة أخرى بجنون، هنا وهناك، إلى أن أصابتني شظية قنبلة في رأسي ففقدت الوعي.. وغبت عن الوجود... وما أدري كم مضى عليّ من الزمن وأنا على هذه الحالة، ولكنني أذكر أنني فتحت عيني، فوجدت الدنيا حولي ظلاماً... وقد كوموا شهداءنا في جانب من ساحة البلدة، رفعت رأسي، وأدرت عيني فيما حولي فلم أجد أحداً.. فحركت جسمي، فإذا به يستجيب لي وأدركت، عندها، أنني لم أمت... زحفت على بطني وأنا أجيل البصر حولي، وكم كان غيظي عظيماً عندما رأيت الأنوار تشع في بيتكم.. بيتكم بالذات.. أكبر بيوت البلدة وأجملها، ومع أنني كنت في خطر شديد، فقد تحاملت على نفسي وتسللت نحو البيت وأطللت بحذر من النافذة، لأرى حاييم، حاييم المسكين المسالم، وهو يجلس على كرسي المرحوم، ويشرب الأنخاب مع رفاقه

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

القتلة وضحكاتهم تملأ المكان...

ـ كفى.. كفى بالله عليك..

صرخت أم ابراهيم، إذ وصل نمر في حديثه إلى هذا الحد، ودفنت وجهها في طرف الفراش، وراحت تنشج وتبكي في حرقة... فلقد آلمتها الصورة حتى الصميم.. وأدركت الآن سر كل شيء... أدركت ألا عودة بعد الآن إلى البيت الذي هجرته ليسكنه الغريب الوافد... لا عودة إلا بنفس الطريقة التي اغتصب الغريب بها البيت...

ورفعت رأسها أخيراً، والدموع تلمع في عينيها، فقال لها نمر بلهجة المعتذر:

ـ أنا آسف جداً يا خالة.. ما كان ينبغي لي أن أقول هذا..

ـ بل كان يجب أن تقوله.. أنا التي طلبت منك أن تقوله.. وما بكيت إلا لكي أنفّس عن روحي ما ملأها من الحقد والغضب...

وبلهجة عادية تماماً، عادت أم ابراهيم تسأله بعد أن تمالكت نفسها:

ـ ثم.. ماذا جرى..

ـ تحاملت على نفسي.. وتوجهت بعيداً، متخذاً طريقي إلى القدس.. أزحف مرة.. وأسير مترنحاً مرة..

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

إلى أن.. إلى أن رأيتك...

وصمت نمر، فقد رأى أم ابراهيم واجمة تحدق في الأرض وكأنها تنظر إلى فراغ، وأدرك أنها قد غرقت في بحر من الأفكار الهائجة، فراح يتأملها دون أن يضيف إلى ما قاله حرفاً واحداً...

والحق أن المرأة قد باتت ترى الأمور ـ بعد حديث نمر ـ أكثر وضوحاً، فالمسألة أكبر وأصعب مما كانوا ـ جميعاً ـ يقدّرون، وأن خروجها الذي كانت تعتبره مؤقتاً، سوف يطول، وأن عليها أن تنظر إلى المستقبل، وتتهيأ له، كي تواجهه وحيدة أو شبه وحيدة...

لقد مضى رجلها، وزوجها، وشريك حياتها.. مضى كما عاهد نفسه على أن يمضي.. لقد أقسم بألا يترك أرضه، وأن يموت فيها، وقد وفى بوعده، وأوفى بقسمه، ومات ميتة الرجال، مات وهو يدافع عن أرضه، وبيته وبلده...

وكان بإمكان نمر أن يحدس نوعية الأفكار التي تجول في رأس المرأة، وأن يدرك بالتالي خطر استرسالها فيها، وأنه ليعرف أكثر من حادثة كان الجنون فيها نتيجة لمثل هذه الأفكار...

فهذا الصمت، والإطراق، والهدوء في تقبل أكثر الأنباء ترويعاً بالنسبة لها، فيه خطر عليها، وعلى عقلها...

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

لو أنها بكت.. لو أنها صرخت.. لو أنها فعلت أي شيء، لكان هذا خيراً من ذلك الصمت المروع...

إنها لم تبكِ إلا عندما حدثها عن الغرباء الذين احتلوا بيتها، ولكنها ـ ويا للغرابة ـ تقبلت نبأ رحيل زوجها بشجاعة غير عادية، وهذا النوع من الشجاعة ليس في صالحها... إن المرأة على شفا الجنون ولا ريب...

وحدث نمر نفسه بأنه يجب أن يفعل شيئاً ما.. أو أن يقول شيئاً ما يخرج بها من لجة الأفكار المروعة التي ألقت بنفسها فيها...

وحار نمر.. ماذا يفعل.. ماذا يقول.. كيف ينتشلها مما هي فيه..

وبينما كان يدير أفكاره في رأسه يحاول أن يجد طريقة ما، جاءت المبادرة ـ على غير توقع منه ـ من الصغير ابراهيم..

كان ابراهيم يصغي بكليته إلى حديث نمر.. ولكنه ـ بطبيعة الحال ـ لم يستوعبه كله، أو هو لم يفهم أبعاده المخيفة، ودلالاته التي سوف تنعكس عليه، وعلى مستقبله هو بالذات، بصورة لا تدعو إلى الارتياح...

كان كل ما استلفت انتباه ابراهيم من الحديث، هو ذكر أبيه أولاً، ثم ذكر «عمو حايم» ثانياً... إنه لم يفهم تماماً

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

ولم يفهم الطفل شيئاً.. ولكنه حدث نفسه بأن عليه أن ينتظر، ربما طويلاً، إلى أن يعود أبوه...

وعاد الطفل يسأل:

ـ وعمو حاييم.. هل سافر هو الآخر؟..

وكأنما كان هذا السؤال هو النار التي امتدت إلى بارود الغضب، والحقد، والتعاسة، واليأس، تلك التي كانت تملأ نفسها، فانفجرت..

رفعت يدها، وبكل ما فيها من قوة لطمت الطفل بظهر كفها على وجهه وهي تصرخ:

ـ كفى.. لا تقل «عمو».. إنه ليس «عمو».. إنه مجرم.. ولص.. وغاصب.. وقاتل.. هل فهمت؟..

وروّع الطفل، وارتمى في جانب من الغرفة وقد أذهلته المفاجأة أكثر مما أوجعته الضربة، وراح يبكي في صمت.. فهذه ـ فيما يذكر ـ هي أول مرة تضربه أمه فيها بهذه القسوة البالغة، دون أن يرتكب ذنباً أكثر من أنه سأل عن «عمو حاييم».. لا.. إنه ليس «عمو».. وإنما هو مجرم ولص وغاصب وقاتل...

إنه يريد أن يقول، أنه لم يرتكب ذنباً سوى أنه سأل عن ذلك الرجل الذي كان يناديه «عمو حاييم».. وكان يريد أن يسأل ـ من ثم ـ عن ولده «يوري»، صديقه العزيز، ورفيق

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

أيامه السالفات في البلدة.. ولكنه شعر بأنه يجب أن يصمت.. وألا يسأل.. فهناك شيء جديد، لا يدري ما هو، قد طرأ على الموقف، وعليه ألا يأتي على ذكر هذه الأمور بعد الآن أمام أمه.. ولسوف يسأل عمّو نمر بعد ذلك ـ على انفراد ـ عن يوري.. ويطمئن عليه..

وظل نمر جامداً في فراشه، لم يتحرك.. ولم يحاول أن يمنع المرأة، ولو بالكلام، من أن تقسو على الطفل البريء هذه القسوة، فقد كان ضرورياً، على أية حالة، أن تفعل المرأة أي شيء كيلا تصاب ـ في رأيه ـ بالجنون...

واتجهت المرأة ببصرها إلى حيث تكوم الطفل، كتلة صغيرة من اللحم، قد انطوى على نفسه، ويداه تغطيان وجهه الذي لسعته اللطمة كأنها ضربة سوط..

وكأية أم، ما لبثت أن شعرت بالندم، والألم، فقامت إليه، وركعت بجانبه واحتضنته، بل ضمته إلى صدرها بقوة، وحاولت أن ترفع يديه عن وجهه لترى أثر اللطمة ولكنه ـ كأي طفل ـ رفض، وظل يغطي وجهه بيديه، وقد علا، الآن، صوت بكائه..

ـ ارفع يديك يا حبيبي عن وجهك وأرني..

ولكن الطفل تمسك بموقفه، وتحولت يداه إلى كتلة صلبة من الفولاذ، أو هكذا خيّل لأمه وهي تبذل مجهوداً حتى استطاعت أن ترى ـ أخيراً ـ الأثر الذي تركته لطمتها

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

على وجه الطفل...

وعادت الأم تضمه إلى صدرها وهي تقول كالمعتذرة:

ـ الله يبلي يدي بالكسر يا ولدي.. لا تزعل.. وحقك عليّ..

ورأى نمر أن الموقف قد بات أقسى مما يحتمل أن يرى، فغطى وجهه بيديه وهو يهتف في أعماقه بحرارة:

ـ يا رب.. ماذا ينتظر هذين المخلوقين بعد؟..

* * *

كان مخطط «التقسيم» سائراً كما أراد له واضعوه ومنفذوه..

وكانت الأحداث تتصاعد، ونار الحر تزداد استعاراً في القدس الجديدة التي كان مقرراً أن تكون من نصيب اليهود..

ومع هذا فلم يكن اليهود راضين عن هذا التقسيم الذي يعطيهم ما ليس لهم فيه حق، ذلك أن التقسيم كان يمتد عبر خط رام الله ـ القدس ـ نابلس، وهذا يجعل «الجامعة العبرية» و«مستشفى هداسا» في المنطقة التي ستترك للعرب، وهو ما حدث فعلاً.. وظل اليهود ـ فيما بعد ـ يرسلون قافلة تحمل المؤن إلى الجامعة والمستشفى طوال سنوات عديدة..

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

وكان تصاعد نيران القتال في القدس الجديدة يطاول ـ بطبيعة الحال ـ حي البقعة الذي نزح ـ أو بالأصح : لجأ ـ إليه بعض أهالي عين كارم، ومنهم أم ابراهيم وولدها..

وكانت أعمال العنف المتبادل بين المجاهدين العرب والإرهابيين اليهود، قد جعلت أم ابراهيم ترى أن من غير الممكن لها أن تظل، هي وطفلها، في القدس الجديدة، إذ كان كل من الطرفين المتقاتلين يهتم برد كل ضربة تناله من الطرف الآخر، حرصاً على الروح المعنوية لقومه بالدرجة الأولى، ورغبة في تحقيق مكاسب عسكرية بالدرجة الثانية..

وكان مما جعل نمر يشعر بالإرتياح، وبشيء من الإطمئنان، أن المرأة الشجاعة قد اجتازت الأزمة بنجاح، فلقد تحول ما أصابها من الحزن والألم إلى قناع دائم كسا وجهها بمعالمه الكئيبة، ولم يفارقها ـ بعد ذلك ـ قط.. ولكن من الواضح ـ وهذا هو المهم ـ أن المرأة قد تقبلت المصاب الأليم ببلسالة، وأنها قد احتملت الصدمة، وبات تفكيرها كله منصباً على وحيدها الذي كان عليها أن تحميه، وأن تدفع عنه الغوائل التي فتحت أفواهها البشعة، تريد أن تلتهمه كما التهمت آلافاً وآلافاً ممن نزلت بهم كارثة النزوح...

وجلست المرأة وحيدة مع صندوقها الخشبي الصغير، الذي بات هو كل ما تملك في دنياها... وراحت تحصي ما

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

لديها، وتجري حساباتها لتعرف كيف تتصرف..

كانت لديها بضع مئات من «الجنيهات الفلسطينية» ـ كما كانت تسمى ـ وهي، ولا ريب، تعتبر ثروة إذ ذاك، كما كانت لديها صرّة صغيرة تحتوي على كمية صغيرة من المصاغ، كانت هي الأخرى تساوي ـ في تقديرها ـ مبلغاً لا بأس به..

أما سيارة الشحن الصغيرة التي كان يملكها زوجها، والتي حملتها وولدها وبعض نساء بلدتها وأطفالها إلى القدس، فقد قدمتها ـ عن طيب خاطر ـ لتساهم بها في الحرب الدائرة..

كان ذلك بعد أسابيع قليلة من وصولها إلى القدس..

فقد جاءها بعض المجاهدين الفلسطينيين، وطلبوا منها أن تعطيهم السيارة لأنهم في حاجة إليها، فوافقت دون تردد، ودون أن تسألهم ماذا سيفعلون بها.. ولشد ما كانت فرحتها عندما علمت بما آل إليه مصير السيارة..

لقد ملأها المجاهدون بالمتفجرات، ووجهوها نحو إحدى العمارات التي كان يعتصم بها عدد كبير من الإرهابيين اليهود، وأطلقوا لها العنان لتصطدم بالعمارة بعنف، ولتنفجر ـ من ثم ـ بما فيها، وتهدم العمارة بأكملها وتبيد معظم الإرهابيين، وحين تلقت أم ابراهيم النبأ، زغردت لأول

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

مرة منذ أن غادرت بلدتها وتركت رجلها، وقالت بفرحة وحشية:

ـ لعينيك يا أبو ابراهيم...

وضحك ابراهيم، لا لشيء، إلا لأنه رأى أمه تضحك، بعد أن افتقد فيها حتى البسمة العابرة.. وبقي لأم ابراهيم صندوقها الخشبي الذي يضم أعز وأغلى ذكرياتها، إلى جانب ثروتها الصغيرة، واعتبرت الشاحنة مساهمة منها في الجهاد ضد الغاصبين...

* * *

كان أشد ما يشغل بال ابراهيم هو أن يعرف تفسيراً لما شاهده، ولما مرّ به، ولما عاناه منذ أن افترق عن والده إلى أن تلقى تلك اللطمة القوية من أمه..

كان يحس بغريزة الرجولة التي ينطوي عليها إهابه الصغير، أن عليه أن يعرف، وأن يفهم..

وكان أكثر ما حيّره، أن أمه قد باتت أكثر رقة وحناناً عليه منذ أن لطمته تلك اللطمة التي تركت آثارها الموجعة على وجهه بضعة أيام، وتركت آثارها الحائرة في قلبه بضع سنوات...

ولم يستطع أن يعرف الذنب الذي جناه حتى تلقى تلك اللطمة، فهو لم يفعل أكثر من أن سأل عن «عمو حاييم»...

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

وبعدها وجد نفسه ملقى في ركن من الغرفة ولطمة أمه تلهب وجهه بآلامها البالغة. . .

لقد تعلم أن عليه ألا يأتي بعد الآن على ذكر «عمو حاييم». . . وبالتالي ألا يستطرد في أسئلة ليطمئن على يوري وراشيل. . .

ولكنه كان يريد أن يعرف: لماذا؟ . .

وإذاكان يرى أن من المستحيل عليه أن يسأل أمه، فقد وجد في نمر الإنسان الوحيد الذي يستطيع أن يجيبه، وأن يروي غليله. . .

وكان نمر، بعد عدة أسابيع قضاها في الفراش، قد استعاد قواه، وعاد سيرته الأولى في المشاركة مع المجاهدين في أعمالهم الجريئة، ولطالما رآه ابراهيم عائداً أشعثاً، مغبراً، يربط يده برباط ملوث بالدم أو يعرج عرجاً خفيفاً. . حاملاً مرة مسدساً، وأخرى بندقية. . وثالثة رشاشاً صغيراً من النوع المسمى «تومي». . .

وكانت عودته إلى البيت ـ في حي البقعة ـ حدثاً هاماً يهتم له كل من فيه من النساء، والشيوخ، والفتيان، ومعظمهم من أهل عين كارم. . . فيلتفون حوله، يسألونه بلهفة عن مجريات الأحداث، ويستفهمون منه عما آلت إليه الأمور، فيجيب على أسئلتهم، ويروي لهم بعضاً من أنباء

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

العمليات التي شارك فيها. . وكانت معنويات السامعين المتلهفين تتذبذب ارتفاعاً وانخفاضاً حسبما يأتيهم به نمر من أنباء، وما يحدثهم به من انطباعات وتوقعات. .

وكانت أم ابراهيم أكثر أولئك السامعين تلهفاً على معرفة الأنباء، وعلى تكوين صورة ما عن المستقبل القريب. .

ولم تكن الأنباء التي يأتي بها نمر مشجعة على وجه العموم. . .

صحيح أن العمليات التي كان يقوم بها المجاهدون قد أنزلت بالعدو أفدح الخسائر، وأنها، في مجملها، كانت ناجحة وموفقة. . . إلا أن المخطط الموضوع خارج فلسطين، من قبل الدول الكبرى، كان يسير وفق أهدافه المرسومة، دون أن يخطر ببال أحد ـ من الشرق أو الغرب ـ أن يتصور حال أولئك الذين شردوا من أرضهم وديارهم وبيوتهم دون ذنب ولا خطيئة، والذين كانوا يعيشون أيامهم موزعين بين الأمل واليأس، يصدقون كل شيء، ويكذبون كل شيء، والمؤن تشح يوماً بعد يوم، والحال تسوء بهم ساعة بعد ساعة، إلى أن جاءهم نمر ذات يوم يقول وهو يتهالك جالساً على الأرض:

ـ أعتقد أن عليكم الانتقال من هنا في أقرب وقت. . .

ونزل كلام نمر على سكان البيت نزول الصاعقة،

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

فصمتوا جميعاً بعد أن كانوا ـ كعادتهم ـ يستقبلونه بالأسئلة المتتالية...

وقالت أم ابراهيم متسائلة بصوت مرتجف:

ـ إلى أين ننتقل؟...

ـ إلى أي مكان آخر... إلى القدس القديمة.. إلى رام الله.. إلى أريحا.. كلّ حسب ظروفه...

وهتفت امرأة عجوز مذهولة:

ـ وأرضنا؟... وبلدتنا؟... وبيتنا؟...

فهز نمر كتفيه في يأس، فهو ـ مثلهم جميعاً ـ لا يعرف الجواب..

وعادت العجوز تتساءل:

ـ ألم يقولوا لنا أنها مسألة أيام.. أو أسابيع على الأكثر، ونعود بعد ذلك إلى بيوتنا...

وأجابها الشاب بمرارة:

ـ يا أمي المسألة أكبر من هذا بكثير.. إنها أكبر مني ومنك ومن شعبنا.. لقد اتفق الكبار جميعهم علينا حتى الروس والأميركان الذين لم يتفقوا يوماً على شيء، قد اتفقوا ضدنا.. فماذا تريدين أن نفعل؟..

وعلقت أم ابراهيم على ذلك التساؤل:

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

ـ أجل.. ماذا يجب أن نفعل؟..

وعاد نمر إلى الحديث:

ـ إن الإنجليز يخلون مواقعهم القائمة في القدس الجديدة ويسلمونها لليهود.. هذه فيما يبدو هي الخطة المتفق عليها بين الطرفين.. واليهود يحرصون على إخلاء كل مكان يتسلمونه من الإنجليز من أي وجود عربي.. وبمنتهى الوحشية والقسوة والعنف وها قد جاء دور القدس الجديدة..

وقالت العجوز وهي تمسح دموعها بطرف غطاء رأسها الأبيض:

ـ ولكن إلى أين نذهب.. إلى أين نذهب.. إنني لا أعرف لي مكاناً ومأوى سوى بلدتي.. فيها ولدت.. وفيها عشت.. وفيها تزوجت وأنجبت.. وفيها بيتي وحياتي.. فإلى أين أذهب؟..

وكأنما كانت تلك العجوز تعبّر عن آرائهم جميعاً، وتساؤلاتهم جميعاً، فليس في ذهن أحد منهم، إذ ذاك، سوى هذه النظرة.. وتلك التساؤلات.. إلى أين نذهب وما نعرف لأنفسنا داراً غير دارنا ولا ديار غير ديارنا..

وأمسك نمر يدي العجوز المعروقتين بيديه القويتين وقال لها بحماسة:

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

ـ يا أمي.. اصغي إليّ.. هذا الذي تتساءلين عنه هو نفسه ما نتساءل عنه.. والذي يهمني الآن هو أن تنجوا بأرواحكم.. وتتجهوا إلى منطقة آمنة.. وبعدها سنرى ما تتمخض عنه الأحداث..

وفجأة تحرك من بين الجالسين رجل عجوز، لعله قد تجاوز الثمانين، كان خلال كل ما مر بأهالي عين كارم كالطفل الوديع، يقترحون عليه أن يغادر البلدة، فيفعل، ويقولون له أن يأوي إلى القدس الجديدة فيطيع... ويقدمون له من الطعام كسرة من الخبز، وشيئاً من الإدام فيأكل صامتاً.. ولم يكن أحد يكاد يحس بوجوده أكثر مما يحس بوجود العشرات من النساء والأطفال وأمثاله من المسنين.. ولم يسمعه أحد ـ قط ـ يعلّق على الأحداث بكلمة، ولا هو أبدى، مرة، رأياً... كان يكتفي بالصمت العميق، والإطراق، والإصغاء إلى ما يدور أمامه من أحاديث...

وفوجيء الجميع بهذا العجوز، ويدعى أبو رشدي، وهو يبدي رأيه لأول مرة:

ـ لقد عاصرت من أحداث هذه القضية ما يشيب له الطفل الصغير... منذ أيام تركيا.. إلى أيام الإنجليز، وشاهد الثورات، وشاركت فيها، ورأيت المظاهرات، وسرت فيها، وكنت أنظر إلى العمر وهو يتقدم بي عاماً بعد عام،

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

وقوتي تهن يوماً بعد يوم، والمؤامرة تتصاعد لحظة بعد لحظة...

وصمت العجوز بعض الوقت وهو يدير عينيه الكليلتين في الحاضرين الذين أدهشهم أنه تكلم أخيراً..

واستطرد يقول بعد أن التقاط أنفاسه:

ـ أنني لن أتحرك من مكاني هذا قيد أنملة.. إما أن أموت هنا.. أو أن أحيا هنا.. ولن أرضى لنفسي ـ كما لا أرضى لكم ـ أن أتنقل من مكان إلى آخر من غير غاية ولا هدف...

وأراد نمر أن يعلق فقال بلطف:

ـ ولكن.. يا عم أبو رشدي...

فنهض العجوز بقوة لم تكن متوقعة منه، ورفع رأسه الذي كان منحنياً على الدوام، وبدا وكأن الشباب قد دب فيه فجأة، وصاح وهو يختطف الرشاش الصغير «تومي» المعلق إلى كتف نمر:

ـ دعوني.. ولا يكلمني منكم أحد.. أريد أن أموت هنا.. ولن أموت على قارعة طريق لا أدري أين يكون...

وبين أنظار الحاضرين المذهولين، توجه أبو رشدي إلى باب الشارع، وسرعان ما اختفي وراءه..

وصاحت النسوة:

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

ـ امسكوه.. امنعوه.. الوحوش.. سيقتلونه..

وقال نمر وهو جامد في مكانه:

ـ لن نستطيع إرجاعه.. وكل نفس تموت في الأرض التي قدرت لها...

وسارع نمر إلى النافذة ينظر منها، ليرى أبو رشدي وقد حمل الرشاش الصغير بطريقة تدل على أنه ليس غريباً عنه...

كان أبو رشدي يسير بخطوات ثابتة، وكأنه شاب في العشرين، متجهاً نحو حاجز أقامه اليهود في نهاية الشارع على شكل كومة مرتفعة من الحجارة، وكان يقوم وراء الحاجز اثنان أو ثلاثة من الإرهابيين اليهود، لم يروا من أبو رشدي من وراء الحاجز سوى رأسه المرفوع، وكتفيه المنتصبين، فصاحوا به:

ـ عربي.. عربي.. روخ من هون..

ولكنه لم يرد عليهم، وواصل تقدمه إلى أن صار أمام الحاجز تماماً، فضرب حجارته برجله بقوة، فتدحرج بعضها، وتراجع اليهود إلى الخلف، وتناولوا أسلحتهم ليصوبوها إليه، ولكنه كان أسبق منهم.. وبرشة واحدة من سلاحه أردى إثنين، واستدار نحو الثالث الذي رمى بندقيته وأخلد إلى الفرار، ولكن يهودياً آخر، كان قابعاً وراء إحدى النوافذ

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

العالية، وجه إليه رصاصة أصابته في جبينه، فسقط دون أن ينبس بكلمة واحدة..

حدث ذلك كله في سرعة خاطفة، لم يكد نمر معها يتابع ما جرى، وفار الدم في عروقه عندما رأى القناص اليهودي وهو يطل من النافذة التي أطلق منها الرصاص على أبو رشدي، فتناول بندقيته، وسددها نحو القناص بإحكام، وفي ثوانٍ كان القناص يسقط من النافذة ليرتطم رأسه على الأرض بعنف...

وزغردت النساء.. بطريقتهن العفوية التي تحتل جزءاً طبيعياً من تقاليد حياتهن، فهن يزغردن في الفرح، مثلما يزغردن في الحزن العميق، ولقد فعلنها ـ هذه المرة ـ فرحاً بمصرع ثلاثة من الأعداء.. وحزناً على استشهاد ذلك الرجل العجوز الذي ما كان أحد يدري على أيّ فتى مقدام كان ينطوي إهابه الواهن...

* * *

كانت كل وسائل النقل تتجه من القدس الجديدة إلى أريحا... التي تبعد ثمانية وثلاثين كيلو متراً...

سيارات من مختلف الأحجام... صغيرة، وكبيرة، ولواري، وعربات تجرها الخيول، تتجه كلها نحو أريحا التي كانت أقرب المناطق المأمونة إلى أولئك النازحين البؤساء،

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

من شيوخ ونساء وأطفال، والذين لم يمضِ على نزوحهم من مدنهم وقراهم وأراضيهم سوى شهر وبعض الشهر، وها هم - الآن - ينزحون مرة ثانية في حالة أشد بؤساً، وأكثر قسوة، فهم لا يغفلون عما يعنيه نزوحهم المتواصل هذا من ابتعاد عن الأرض، والبيت، والمأوى.. يقابله ابتعاد الأمل في العودة الوشيكة التي وعدوا بها، والتي كانوا يمنون أنفسهم بها عندما نزحوا أول مرة..

صف طويل طويل، عريض عريض، من قوافل النازحين تزدحم بها الطرق الرئيسية والفرعية ما بين القدس وأريحا، حاملة ما لا يقل عن مائتي ألف نفس بريئة ما جنت من ذنب، ولا أتت من جريرة، ولا كانت أكثر - ولا أقل - من ضحية للمؤامرة التي لم يعرف التاريخ لها مثيلاً... شعب بأكمله يخرج من أرضه بالقوة الوحشية، والغدر، والتسلل، والإرهاب..

وكانت أم ابراهيم قد وفقت، بجهود الفتى الشهم نمر، في الحصول على مقعدين في أحد «الباصات» المتجهة إلى أريحا، واضطرت لدفع خمس ليرات، أي خمسة جنيهات، كاملة للحصول عليها، حيث جلست في مؤخرة «الباص» وولدها ابراهيم بجانبها، والصندوق الخشبي، الذي هو كل ما تملك من هذه الدنيا، عند قدميها على أرض الحافلة..

أما نمر، فقد تخلف عن الركب، وقال لأهل بلدته أنه

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

سيلحق بهم بعد أن يطمئن إلى خروج آخر واحد منهم من القدس...

وكانت سيارة «الباص» الكبيرة قد حملت أضعاف حمولتها العادية من البشر، وأمتعتهم البائسة، كما وجد كثيرون لأنفسهم أمكنة على ظهر السيارة التي راحت تتحامل على نفسها وهيكلها يصدر صريراً متواصلاً، وكأنه أنين السيارة وهي تكاد تنوء بما تحمل...

وكانت أم ابراهيم تجيل البصر فيما حولها من مظاهر البؤس النازح عن أرضه، وهي لا تكاد تصدق ما ترى.. بل لا تكاد تصدق أن هذا الذي جرى قد وقع فعلاً...

كانت أحياناً تحس بأنها واقعة تحت تأثير كابوس مروّع لا تلبث أن تفيق منه... فلم يكن من السهل عليها أن تصدق أنها قد فقدت شيء: زوجها، وبيتها، وأرضها، وبلدتها، وأن تنزح مرتين خلال أقل من شهرين اثنين، وتسير وسط هذه الصفوف الطويلة من أبناء وطنها، بعضهم يركب سيارات من مختلف الأنواع، وبعضهم يسير على الأقدام، وكلهم قد هدّهم التعب، والذهول والبؤس، والخوف، والضياع...

وكان أشد ما يؤلمها، ويؤلم كل من كانوا معها، أو كانت معهم، في هذا الموكب التعس، أنها لم تكن تستطيع أن تتصوّر ماذا سيكون عليه أمرها إذا وصلت إلى أريحا..

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

فكيف ستتمكن من العيش هناك؟.. وكيف ستجد مسكناً، أو مأوى، وسط هذه العشرات من الآلاف النازحة مثلها، وكيف ستكون حياتها بعد ذلك.. هل تكون أريحا خاتمة المطاف، أم أنها ستضطر للنزوح مرة ثالثة.. وإلى أين؟.. رباه.. كم يحيط بها الظلام الدامس رغم الشمس التي كانت ترسل أشعتها الحامية لتزيد أولئك البؤساء على بؤسهم بؤساً، وعلى آلامهم آلاماً، وعلى ضيقهم وضياعهم، مزيداً من الضيق والضياع...

* * *

خلال أيام قليلة امتلأ كل شبر من أراضي أريحا وما يحيط بها بعشرات الآلاف من النازحين من المنطقة الوسطى من فلسطين...

ولم يكن هؤلاء كل من نزح وغادر أرضه، مكرهاً، من الشعب الذي تآمرت عليه قوى الشر في الدنيا كلها...

كانت هناك مئات أخرى من الآلاف، نزحت إلى أقرب المناطق العربية خارج فلسطين...

فسكان المناطق الشمالية توجهوا إلى سورية ولبنان، وسكان المناطق الجنوبية نزحوا إلى الغرب، إلى قطاع غزة الذي كان خارج حدود التقسيم، والقلة القليلة بقيت في أراضيها ومساكنها، وإن كانت قد فقدت هويتها الفلسطينية الطبيعية، إذ بات عليها أن تعيش تحت الحكم الإسرائيلي..

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

واستطاعت أم ابراهيم أن تجد لنفسها غرفة صغيرة، كانت في الأصل كنّاً للدجاج، في منزل قروي فلسطيني في ظاهر المدينة، واتفقت مع أصحابه على أن تدفع لهم ليرة كاملة، أي جنيهاً، كل شهر إذا ما قررت أن تقيم في أريحا مدة طويلة...

وما يدري أحد، كيف استطاعت مدينة لا يزيد عدد سكانها عن عشرين ألف نسمة أن تستوعب مائتي ألف نسمة.. وربما كان لسهول أريحا الخصبة الواسعة، وعيون مياهها العذبة، ومحصولها المتميز من البرتقال والموز، أثره في تأمين الحياة لتلك الأعداد الهائلة من البشر، الذين ما كان يستطيع واحد منهم أن يرسم لنفسه خطة، أو يلقي حتى مجرد نظرة على المستقبل، فالموقف قد أفلت من أيدي الجميع، والشائعات تفتك بنفوس الناس مثلما بدأت الأمراض وسوء التغذية تفتك بهم، وما كان أحد يدري أين يتوقف النهم الصهيوني، وعند أي حد، وماذا أعدت لهم المؤامرة المرسومة ضدهم من مصير؟...

وهكذا مضت أيام، ليست بالكثيرة ومأساة النزوح تتكامل صورتها بكل تفاصيلها المؤلمة والبشعة في آن واحد...

أما ابراهيم فقد كان غافلاً تماماً عن معنى كل ما يدور حوله، وكان يتحاشى أن يتسبب في إغضاب أمه لأي سبب من الأسباب، فقد كان ما يزال يحس بلهيب تلك اللطمة

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

يؤلم روحه، فكان يتحاشى أن يذكر أي شيء عن حياتهم الماضية، ويتحاشى، أكثر فأكثر، أن يأتي على ذكر يوري وأبيه حاييم وأخته راشيل...

كان ينتهز كل فرصة يختلي فيها بنفسه ليكشف عن ذراعه الأيسر، ويحدق في باطنه متأملاً الوشم الأزرق الذي نقشته تلك الغجرية، ونقشت مثله على باطن ذراع صديقه يوري...

وكان أشد ما يشغل باله أن الظروف لم تسمح له بأن يسأل «نمر» عن يوري وأهله... فهو لا يدري شيئاً عن مصيرهم، ومع أنه كان يتألم أعمق الألم إذ يتذكر أن يوري لم يرافقه في النزوح، إلا أنه كان يأمل في أن يعثر عليه بين تلك الجموع الحاشدة التي ملأت كل مكان في أريحا وما حولها...

كان ـ لطفولته وسذاجته ـ يعتقد أن يوري وأهله قد نزحوا مثلهم، فلقد قيل له ذلك في بيت حاييم.. إنه لم يعد يتذكر بالضبط من الذي قال له أن يوري وأهله سوف يلحقون بهم فيما بعد، وابراهيم يشعر بأشد الشوق إلى صديقه العزيز... كما يشعر بشوق أكثر إلى أبيه، ولكن أباه ـ كما قالت له أمه ـ قد سافر إلى مكان بعيد. أما يوري فهو ـ ولا شك ـ في مكان ما بين هذه الجموع التي افترشت الأرض، وأقام بعضها مساكن من الخشب، أو الصفيح، وبعضها كانت لديه خيام،

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

فكيف يستطيع ابراهيم أن يجد يوري وأهله. . . كيف؟. . .

* * *

غابت الشمس، وبدأ الظلام يسدل أستاره على أريحا وما حولها. .

وكانت أم ابراهيم قد وفقت في الحصول على رغيف من الخبز، وقطعة من الجبن، وبضع برتقالات، فعادت بها فرحة إلى مسكنها المتواضع، لتفاجأ بأن ابراهيم لم يكن هناك، رغم أنها أكدت عليه أن يبقى، وألا يغادر المكان مهما جرى إلا إذا سمحت له بذلك. . .

وسقط «الطعام» من يديها، وشعرت بيد من فولاذ تعتصر قلبها حتى كاد يتوقف عن الخفقان. . . أي ابـراهيم؟. . . وإلى أين ذهب؟. .

كيف ستجده؟. .

وما الذي جعله يترك المكان رغم أمـرها المشـدّد إليه بالبقاء. . .

ودارت ببصرها حولها كالمجنونة، تحاول أن تخترق به أطباق الظلام الذي بدأ يتكاثف عليها تجـد ولدهـا الصغير الذي غاب. .

وبدون وعي صرخت:

– ابراهيم. . ابراهيم. .

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

ولكن، ما من مجيب..

ودارت بها الدنيا، وأحست بأنها ستفقد حياتها إذا هي فقدت ولدها وأملها ورجلها وكل دنياها...

وخرجت مسرعة، وراحت تجري وتجري وهي تصرخ:

ـ ابراهيم.. ابراهيم..

وكانت تنظر، في جريها، يميناً ويساراً، علّها تجد ولدها بين الألوف التي كان معظمها قد أخلد إلى النوم، إذ كان محظوراً عليهم إشعال أي ضوء في الليل..

ولم تكن أم ابراهيم وحدها هي التي تبحث عن ولدها الضائع.. فهناك كثيرون مثلها، كانوا يتنقلون بين الجموع وهم ينادون:

ـ فاطمة.. جريس.. كمال.. أحمد.. نبيل...

ترى، هل يمكن لأي رسام في الدنيا أن يبدع لوحة أكثر إيلاماً وبؤساً وتعاسة من هذه اللوحة الحية؟..

هل يستطيع كاتب.. أو شاعر.. أو موسيقي.. أن يترجم عذاباً إنسانياً إلى قطعة من النثر، أو قصيدة من الشعر، أو سيمفونية موسيقية، كذلك العذاب الإنساني الذي شهدته أريحا وسهولها ووهادها؟...

قوم مشردون بلا خطيئة ولا جريرة..

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

أسر بأكملها، بعضها قتل، وبعضها فقد، وبعضها عاش ليكمل مسيرة العذاب... هؤلاء الصائحون في عتمة الليل على أحباء فقدوهم، كيف سيجدونهم.. وأين يجدونهم، والناس كيوم الحشر يعدّون من الأنفس مائتي ألف أو تزيد؟.. ومع أن أم ابراهيم كانت ضعيفة الأمل في العثور على ولدها، إلا أنها لم تكن تستطيع إلا أن تجري وتجري.. تبحث وتبحث.. تنادي وتنادي.. علماً منها بأنها كفيلة بأن تسقط أرضاً بلا حراك، إذا هي تحققت من أن ولدها قد ضاع منها نهائياً، ففقدت بذلك حياتها ذاتها.. وكل ما كانت تعيش من أجله...

وأخيراً سقطت...

سقطت مغمى عليها، بعد أن جرت وسارت وصرخت ونادت حتى أنهكت قواها تماماً، وما عاد بوسعها إلا أن تسقط وأن تفقد الوعي...

* * *

عندما فتحت عينيها، تلفتت حولها تريد أن تعرف أين هي؟..

رأت حولها عدداً من الأشخاص، يلتفون حول السرير الحديدي الخشن الذي كانت مسجاة عليه.. وشيئاً فشيئاً كانت المرئيات تتضح أمام عينيها، لتجد بين الذين التفوا حولها وجهاً أليفاً.. وحين أدارت عينيها إلى من بجانبه

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

وجدت وجهاً أليفاً آخر...

الأول كان وجه نمر...

والثاني كان وجه ابراهيم...

وفجأة تذكرت كل شيء، وعادت إلى ذهنها أهوال الليلة الفائتة وهي تجري هنا وهناك باحثة عن ابراهيم، منادية عليه..

وشهقت شهقة قوية، واستقامت في مثل لمح البصر في جلستها، ثم مدت يديها الإثنتين، تحمل بهما ابراهيم، وتضمه إلى صدرها، وتوسعه تقبيلاً، وهي تبكي بكاء حاراً...

ـ أواه يا ابراهيم.. أواه يا ولدي.. أين كنت؟.. الحمد لله على سلامتك..

ولم يجبها ابراهيم بشيء، وإنما انهمرت دموعه على خديه يبكي في صمت، ويحاول أن يضمها إليه بيديه الصغيرتين..

ومسح نمر دموعاً نفرت من عينيه رغماً عنه، وتمالك نفسه وهو يقول:

ـ بسيطة.. حصل خير.. لقد تاه الولد بين الجموع ولم يعرف كيف يعود إلى.. البيت..

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

وعادت أم ابراهيم تضم ولدها إلى صدرها غير مصدقة بأنها قد عثرت عليه وقالت في لوعة أليمة:

ـ ولكن إلى أين ذهب.. إلى أين ذهب وأنا التي أكدت عليه ألا يغادر مكانه حتى أعود.. لقد خفت عليه من الضياع فتركته في.. في البيت.. ورحت أبحث عن شيء من الطعام..

ولم يكن أمام نمر إلا أن يعيد قوله:

ـ بسيطة.. حصل خير.. حصل خير..

ونهضت المرأة، ونزلت عن السرير، وقبضت على يد ولدها بشدة، ثم نظرت فيما حولها متسائلة عما جرى...

وتولى أحد الرجال الذين كانوا واقفين الشرح والإيضاح.. قال لها أنها الآن في أحد أقسام دائرة البلدية.. وأن الناس اعتادوا على أن يبحثوا عن المفقودين في هذا القسم، وأن يسلموا إليه الأطفال الضائعين.. وأنهم عثروا على ولدها وهو يسير على غير هدى بين جموع النازحين، وحين سألوه عمن يكون، وعجز عن الجواب، جاؤوا به إلى دار البلدية على أمل أن يأتي أهله للبحث عنه... وأنهم جاؤوا بها كذلك إلى هنا، عندما سقطت مغمى عليها، فأسعفوها، وتركوها تستريح من العناء الذي لاقته وهي تجول باحثة عن ولدها...

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

وأكمل نمر الحديث فقال:

ـ لقد جئت إلى أريحا هذا الصباح.. بحثت عنكما طويلاً.. ثم دلوني على دار البلدية، فجئت إليها على أمل أن أتمكن من العثور عليكما، ولشد ما كانت دهشتي عندما وجدت ابراهيم مع الأطفال المفقودين الذين جيء بهم إلى هنا.. ولكنني لم أستطع أن أعرف منه شيئاً عن المكان الذي تقيمان فيه..

وتمتمت المرأة بعبارات الحمد لله إذ عثرت على ابراهيم ولقيت نمر، وشكرت الرجال القائمين على دار البلدية، وأمسكت بيد طفلها تريد أن تذهب به إلى المكان الذي تقيم فيه...

وقال نمر بشيء من التردد:

ـ هل.. هل ترغبين في أن أوصلك إلى بيتك؟..

فقالت له بمرارة:

ـ بيتي؟..

واستدرك نمر قائلاً:

ـ أعني.. المكان الذي تقيمان فيه.. من جهتي أنا أحضرت خيمة نصبتها في مكان قريب... سأستدل على مسكنك ليمكنني أن أقدم لك ما أستطيع من خدمات..

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

وأومأت المرأة شاكرة له هذا الفضل، ثم ألقت السلام على الموجودين وغادر الثلاثة المكان ويدها تقبض على يد ابراهيم بشدة كأنما هي تخشى أن يفلت من يدها ويضيع عنها مرة أخرى. . .

* * *

ـ والآن. . أروِ لي ماذا حدث بالأمس. . وإلى أين ذهبت. ولماذا سببت لوالدتك كل ذلك الرعب والألم. .

ألقى نمر سؤاله هذا على ابراهيم الذي كان يجلس قبالته عند مدخل الخيمة، إذ لم تشأ الأم أن تدب الذعر في نفس ولدها إذا ما سألته، لا سيما وأنها تخشى على نفسها من أن يأخذ منها الغضب مرة أخرى، فتضرب الولد اليتيم، كما فعلت قبلاً عندما كانا في القدس. . لتندم بعد ذلك ندماً أليماً قاتلاً ما زال يمزق فؤادها كالسكاكين كلما تذكرت ذلك الحادث. . ولهذا طلبت من نمر أن يستدرج الطفل بصورة غير مباشرة، ومن غير أن يسبب له السؤال أي انزعاج أو خوف. . .

وأطرق ابراهيم خجلاً، ونمر يرقبه صامتاً، ثم رفع رأسه وأداره فيما حوله، كأنما ليطمئن إلى أن أمه غير قريبة منه ولما تأكد من ذلك، نظر إلى نمر وأجابه على سؤاله بكل بساطة:

ـ كنت أبحث عن يوري. . .

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

وصعق نمر، وسأله وكأنه لا يصدق سمعه:

ـ كنت تبحث عن.. يوري؟..

ـ أجل..

ـ وما الذي جعلك تعتقد أنك ستجده هنا؟..

ـ كل الناس جاؤوا إلى هنا.. وكان هو، أو أبوه، لا أذكر، قد ذكر بأنهم سيلحقون بنا فيما بعد إلى القدس... ولكنهم لم يأتوا.. وحين جئنا إلى هذا المكان قلت في نفسي أنه لا يمكن أن يتأخر يوري وأهله أكثر من ذلك، فخرجت أبحث عنهم ولكنني لم أجد أحداً.. فأنت تعلم أن الناس كثيرون.. وعندما حاولت العودة إلى مسكننا ضللت الطريق...

كان نمر يصغي مذهولاً إلى حديث ابراهيم، وقد آلمه أن الطفل كان يتحدث بجدية تامة، وكأنه كان في مهمة عظيمة الشأن، وأن إخفاقه في العثور على صديقه بين تلك العشرات من الآلاف قد أحزنه..

وحار نمر كيف يحدث ابراهيم عن جلية الأمر.. كيف يجعله يفهم أن يوري ليس هنا، وتداعت إلى ذهنه صورة حاييم وعائلته وهم يحتلون بيت أبو ابراهيم، دون أن يرف لهم جفن من حياء، أو ينبض فيهم عرق من وفاء...

ووجد نمر نفسه يقول بصوت مسموع:

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

ـ هكذا إذن؟.. كنت تبحث عن يوري؟..

ـ أجل يا عمو نمر.. فهل رأيته؟..

ـ لا.. لم أره.. ولكن من يدري؟.. فقد تتاح لي فرصة هذا اللقاء يوماً ما إذا مدّ الله في عمري.. أو ألقى أباه على الأقل..

ـ ألم يأت مع هؤلاء الناس؟..

ـ لا...

ـ ومتى يأتي إذن؟..

ـ إنه لن يأتي...

ـ لا.. لا تقل هذا..

ـ عجيب.. ما الذي يجعلك تتكلم بهذه الثقة؟..

وكشف ابراهيم عن ذارعه، وأشار بيده الأخرى إلى الوشم وهو يقول:

ـ لقد تعاهدنا، أنا وهو، على أن نظل أصدقاء طوال حياتنا.. وهذا الوشم هو دليل ذلك العهد..

وصرّ نمر بأسنانه من الغضب، وحار كيف يستطيع أن يفهم طفلاً في السابعة أو الثامنة، أن يوري لن يأتي، لأنه عدوه، وأن أي لقاء بينهما ـ إذا حدث ـ فهو لقاء بين قاتل

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

ومقتول، بصرف النظر عمن يكون قاتلاً ومن يكون مقتولاً . . .

ولكنه وجد أن من واجبه، على أية حال، أن يضع البذرة اللازمة في ذهن الطفل، ولسوف تنمو وتضرب جذوراً وتعطي أوراقاً وثماراً في يوم من الأيام، فبهذه الطريقة نشّأ الصهيونيون أجيالهم، وبهذه الطريقة زرعوا بذور الحقد القاتل في نفوس أبنائهم حتى تجردوا من كل شعور إنساني، وباتوا وحوشاً تلغ في الدماء، وكأنها تشرب كأساً من الماء . .

وتحدث نمر:

ـ اسمع يا ابراهيم . . أنت الآن صغير . . ولست أدري ما إذا كنت سأوفق في أن أوضح لك ما أريد أن أقول . . يجب أن تفهم أن يوري، وأباه، وأمه، وأخته، وقومه جميعاً هم أعداؤك، مثلما هم أعداؤنا . . لقد آويناهم، وشاركناهم حياتنا، وفتحنا لهم أبوابنا وكنا نأمل في أن نعيش معاً كفلسطينيين، مسلمين ومسيحيين ويهوداً، وأن يأخذ كل ذي حق حقه من غير أن يتجاوز على حقوق الآخرين . . .

ولكن اليهود، ويوري يهودي كما تعلم، أبوا إلا أن يأخذوا كل شيء ظلماً وعدواناً، وسخروا من أجل ذلك كل شياطين الأرض من الشرق والغرب . وطردونا ـ نحن أصحاب الأرض ـ من أرضنا . . وأخرجونا من ديارنا . . وها نحن كما ترى . . بالأمس خرجنا من عين كارم إلى القدس . . وبعده

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

خرجنا من القدس إلى أريحا.. وليس يعلم إلا الله أين نكون غداً.. فهل فهمت؟.. لقد أمرنا الله تعالى أن نرد العدوان بمثله، وأن نُعد لعدونا ما استطعنا من قوة.. ولئن كنا قد هزمنا في هذه الجولة فالحرب جولات.. وهي بيننا وبينهم سجال.. ولسوف يأتي اليوم الذي نستجمع فيه قوانا.. وننظم صفوفنا.. ونعود إلى أرضنا بقوة حقنا، وقوة ذراعنا.. هل فهمتني؟..

ولم ينبس ابراهيم ببنت شفة، ووجد نفسه ـ لأول مرة ـ يفهم ما لم يكن يفهمه، ويعرف أن هذا التشرد الذي يعيشونه إنما هو نتيجة لعدوان قوم يوري، وأنه ـ بالتالي ـ قد بات يكرهه.. يكرهه من نفس الأعماق التي أحبه بها من قبل..

ورفع عينيه إلى نمر، فشعر هذا برجفة تجتاح كيانه، فلقد كانت عينا ابراهيم تلمعان ببريق مخيف، ذكره بالحاج أبو ابراهيم ـ يرحمه الله ـ في غضبته، وأدرك نمر أن البذرة قد وجدت مكانها الطبيعي، وأنها سوف تنمو كما يأمل لها، لينشأ لفلسطين جيل العودة، مثلما نشأ لها ـ الآن ـ جيل النزوح...

وبكلمات بطيئة سأل ابراهيم:

ـ أين يوري الآن؟..

آه.. إنك لم تخيب أملي فيك.. وبدأت تنظر إلى الأمور نظرة صحيحة.. يوري ـ يا بني ـ يسكن الآن بيتك..

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

ويعيش على أرضك وأرض أبيك وأجدادك.. وأنت، ها هنا، كما ترى.. ضائع.. مشرّد.. لا تدري ما يكون عليه يومك.. ولا تكاد تجد قوتك إلا بصعوبة...

وقبل أن يرد ابراهيم، الذي ثارت في نفسه مشاعر لم يكن يتوقعها من الغضب والحقد، اقتربت أمه منهما وقد استغربت أن تطول الجلسة بينهما إلى هذا الحد..

ولم يكد نظر ابراهيم يقع عليها حتى هبّ واقفاً، وأسرع إليها، وألقى بنفسه بين ذراعيها وهو يقول بصوت قاطع كحد السيف:

ـ أماه.. أنا أكره يوري.. وأكره قوم يوري..

وتنهدت الأم بارتياح شديد، وأحست بأن الحاجز الوهمي بينها وبينه، ذاك الذي كانت تشكله عاطفة ابراهيم نحو صديقه اليهودي قد زال، وأن ولدها قد وضع قدمه على الخطوة الأولى من الأمل العظيم الذي كان يراودها وتراه مجسماً فيه..

وضمته إلى صدرها تقبله في شغف وهي تردد بتأثر:

ـ الحمد لله.. الحمد لله.. الآن عدت لي بقلبك كاملاً.. تحبني وأحبك من غير أن يفصل بيننا ذلك العدو الذي كنت تحسبه صديقاً...

ونظر ابراهيم إلى الوشم الذي طالما اعتز به، نظر إليه

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

باشمئزاز، وقال بلهجة من رأى أفعى تلتف على ذراعه:

ـ أماه.. أريدك أن تزيلي لي هذا.. هذا الرسم..

وهزت الأم رأسها في أسف وهي تقول:

ـ فات الأوان يا ولدي، سيرافقك هذا الوشم طول حياتك، لأنه لا سبيل إلى إزالته.. ولئن كنت تعتبره من قبل رمزاً لصداقتك لمن لا يستحقها، فليكن منذ اليوم رمزاً لعداوتك لمن يستحقها..

* * *

مضى على أم ابراهيم وولدها من الزمن قرابة الأسبوعين، وهما في الجحر الذي سكناه مذ نزلا في أريحا، وكان نمر قد أقام خيمته على مبعدة بضع عشرات من الأمتار، فكان يقوم على أمور هذين المخلوقين البائسين، ويبذل جهده في تأمين الطعام لهما، والعناية بهما، وهو يشعر بأنه إنما يؤدي واجباً مفروضاً عليه...

غير أنه كان يغيب فجأة عن الأنظار يوماً أو يومين، ثم يعود فجأة كما غاب، دون أن يدري أحد أين كان إلا أم ابراهيم التي كان يحدثها باشتراكه في بعض العمليات الفدائية ضد العدو الذي بدأ يرسخ أقدامه بعد إعلان الهدنة، وكان ابراهيم يصغي إلى هذه الأحاديث، ونفسه تتوثب حماسة وفرحاً، ولقد هم أكثر من مرة أن يطلب من نمر أن

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

يصحبه معه، لولا أنه كان متأكداً من أنه لن يرضى، لأن مثل هذه الأعمال إنما خلقت للرجال، وهو ما زال، بعد، طفلاً.. وعليه أن يكبر بسرعة إذا أراد أن يصبح جديراً بأن يقاتل أعداء قومه وبلاده...

وكانت أم ابراهيم تلاحظ أن أعداد النازحين تتناقص باستمرار، وبشكل ملحوظ، فلم تهتم بذلك بادىء الأمر، ثم خشيت أن تكون لهذا التناقص أسباب تهددها وولدها بالخطر، فسألت بعض زميلاتها في النكبة عما يجري، فأجبنها بأن أعداداً كبيرة من نازحي أريحا يتوجهون إلى «شرقي الأردن» عبر جسر النبي، حيث فرص الأمان أكثر مما هي عليه الآن...

وفكرت أم ابراهيم في الأمر، ووجدت بأن من الخير لها أن تنتقل هي أيضاً إلى هناك، إذ قد تجد عملاً تعتاش منه مع ولدها، كما أن هناك مجالاً أوسع لكي تدخل ولدها في إحدى المدارس، لكي يستأنف تعليمه الذي قطعته الأحداث المروّعة التي مرت بهم..

وشاورت نمر في الأمر، فأيده، ووعدها بأن يرافقها إلى عمّان ليحاول تأمين حياتها وحياة ولدها قبل أن يقرر ما يراه بشأن مصيره هو..

وهكذا، دهش ابراهيم حين وجد والدته تجمع أشياءهما القليلة، وتضعها في الصندوق الخشبي الصغير، وحين سألها

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

عن السبب قالت أنهما سينتقلان إلى مكان آخر. . . وطفرت الدموع من عيني الطفل قهراً وألماً، وسألها بلجهة من بات يدرك ما يدور حوله:

ـ هل سننتقل إلى مكان آخر بعد أن انتقلنا من قبل مرتين؟. .

وتوقفت الأم عما كانت فيه، ونظرت إليه طويلاً ثم قالت:

ـ لست أدري يا ولدي كم مرة سوف ننزح من مكان إلى مكان. . ولكن تذكر. . أننا عند العودة سنعود من غير توقف، ولن نضطر إلى التنقل كما تفعل الآن. .

وقلب ابراهيم ذراعه، ونظر إلى الوشم الذي فيه، وهو يحفر كلمات أمه في ذاكرته حفراً. . فالوشم قد بات ـ الآن ـ في نظره رمزاً للإنتقام، بعد أن كان رمزاً لصداقة جاد بها من غير تبصر على من لا يستحقها. . .

وانتبه من استغراقه على صوت أمه وهي تطلب منه أن يساعدها في حمل الصندوق إلى حيث توجد السيارات المتوجهة إلى عمان. . .

* * *

ومرة أخرى، عاد موكب البؤس إلى التحرك. . .

إنه يبتعد، أكثر فأكثر، عن أرضه. .

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

لقد تركها للغاصبين الـذين اتبعوا في التهجيـر أساليب وحشية لم يسبق لها مثيل في التاريخ . .

وبدأ اليأس في التسرب شيئاً فشيئاً إلى نفوس السائرين في ذلك الموكب الفاجع . .

إن المسألة ـ قالوا لأنفسهم ـ ليست كما قيل لهم . .

ليست مسألة أيام أو أسابيع يعودون بعدها إلى بيـوتهم وأراضيهم ومدنهم وقراهم . .

فالبيت الذي يتركه أصحابه، طائعين أو مرغمين، يحتله على الفـور غـربـاء أتي بهم من شتى بـلاد الأرض، وهم ممتلئون حقداً على قوم لم يسيئوا إليهم قط، وجشعاً لانتهاب الثـروات المتروكـة ووضـع اليـد عليهـا، وتـرك أصحـابهـا الشرعيين للبؤوس والضياع والتشرد . .

يحدث هذا، وميثاق الأمم المتحدة لم يكد يجف مداده بعد، وهو الحافل بالعبارات المنمقة حول «حقول الإنسان» و «حق تقـرير المصيـر» و «حق الأمم والشعوب في التمتـع بالحرية والاستقلال» . . إلى غيـر ذلك من «الحقـوق» التي حفل بها الميثاق فأين هي تلك الحقوق؟ . .

أين هي، ومئـات الآلاف من بني الإنسـان يـزحمـون الطرق المؤدية إلى خارج بلادهم وأراضيهم، وفيهم كثيرون ممن قاتلوا في صفوف جيوش «الحلفاء» الذين زعموا أيـام

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

الحرب العالمية الثانية، أنهم إنما يقاتلون ضد الوحشية والبربرية والعدوان ثم إذا بهم، الحلفاء أنفسهم ولا أحد سواهم، يحكمون الطوق على شعب كان يعيش آمناً في بلده وأرضه، ليهجر البلد، ويترك الأرض، ويهيم على وجهه تحت كل سماء.. ضائعاً.. تائهاً.. مشرداً.. من غير مأوى.. من غير أمل.. من غير مستقبل؟..

كانت أفكار نمر الجياشة بالغضب والسخط، تدور في هذه الدوامة، وهو يعتلي سطح أحد الباصات، المتجهة إلى عمان عبر جسر اللنبي، وينظر إلى تلك الصفوف الطويلة، من أمامه ومن خلفه، للنازحين الذين شردوا من أرضهم...

وكان نمر يشعر بشيء من تأنيب الضمير، وهو يرى أرض فلسطين تبعد عن ناظريه شيئاً فشيئاً، إذ كان يرى أنه يجب أن يموت هناك، في فلسطين، وألا يسمح لأحد أن يجبره على النزوح، وإذا ما استطاع العدو أن يمنعه من البقاء على أرضه حياً، فهو - بكل تأكيد - لا يستطيع أن يمنعه من أن يموت فيها، شهيداً يروي ترابها بدمائه..

واستعر الغضب في نفس نمر أكثر مما كان، وحدثته نفسه - عدة مرات - أن يقفز من الباص، وأن يعود، وأن يقاتل، وأن يموت، وما كان شيء في الدنيا يستطيع إثناءه عن تنفيذ هذا العزم، لولا أنه كان يتذكر تلك الأرملة البائسة وولدها الصغير، فهي قد وضعت آمالها فيه، وهي - ومن ثم -

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

تعتمد عليه في كل صغيرة وكبيرة منذ أن التقته في ذلك اليوم المشئوم الذي سقطت فيه «عين كارم» في أيدي الوحوش الغاصبين...

وأدار نمر بصره فيما حوله، ينظر إلى عشرات، بل مئات، السيارات من مختلف الأنواع والأحجام، وقد راحت تقطع الطريق بأحمالها البائسة، وهي محملة بالبشر، والأمتعة، بحيث تبذل مجهوداً واضحاً لتواصل سيرها بما حملت فوق طاقتها... وكان منظر مألوفاً أن تتعطل إحدى السيارات فجأة، فتقف على جانب الطريق، لينزل منها ركابها ليشاركوا في إصلاحها، أو دفعها، أو تغيير إحدى عجلاتها، أو محاولة التعلق بسيارات أخرى إذا ما يئسوا من إصلاحها...

وفي مرارة لا يطاولها الوصف، كان نمر يتمنى لو أن واحداً ـ واحداً فقط ـ من أولئك الرجال، ذوي الياقات البيضاء، الذين اتخذوا مقرراتهم بتشريد شعب كامل وهم في مكاتبهم المترفة، وقاعات اجتماعاتهم المكيفة، قد كان الآن هنا، مع موكب النزوح هذا، يعاني مثلما يعاني هؤلاء النازحون الأبرياء، ويضيع وسط حشودهم متعلقاً بسيارة، أو معتلياً ظهر حافلة، أو محشوراً وسط تلك الحشود، في هذا الحر الخانق، والبؤس الذي ما بعده بؤس.. لعله ـ إذ ذاك ـ كان يربأ بنفسه أن يلوث يديه بتلك المؤامرة القذرة، ولو كان وحشاً مفترساً...

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

ووجد نمر نفسه وقد شعر بتعب شديد من هذه الأفكار التي كانت تزيد من آلامه وتعاسته ويأسه، وتمنى لو أن الشمس الحارقة التي كانت تصليه، كما تصلي سواه من النازحين، بحرارتها الشديدة، قد أصابته بالإغماء، فأفقدته الوعي لكي يرتاح من أفكاره ولو بعض الوقت، ليحاول ـ بعدها ـ أن يفكر فيما سيفعله عندما يصل إلى عمان.. ولكنه ـ ويا للأسف ـ ظل واعياً، يتصبب عرقاً ويذوب إعياء، والأفكار تغلي في ذهنه وقلبه وتفور، إلى أن لاحت له مشارف المدينة التي يقصدونها...

* * *

وبأعجوبة، أو ما يشبه الأعجوبة، استطاع نمر أن يعثر على «مسكن» لأم ابراهيم وولدها في عمان...

كان هذا المسكن عبارة عن غرفة صغيرة، متصلة بمغارة في قلب «جبل عمان»، يبدو أنها تستخدم كمطبخ، أما الغرفة نفسها فتتصل بحوش صغير، يصعد إليه بدرج خشبي متداع، وكان باب المسكن عبارة عن شرائح من الألواح الخشبية، ليس لها سوى قفل عادي صغير..

وأدارت أم ابراهيم نظرها في المكان، ليتداعى إلى ذهنها على الفور مسكنها الذي خلفته هناك..

أين هذا الذي تراه هنا، من ذاك الذي خلفته هناك؟..

أين هذا المغارة من مسكنها الفسيح المبني من الإسمنت

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

المسلح، والمحاط بالشرفات المطلة على حديقة كبيرة، تنبسط أمامها الحقول المزروعة بأشجار الزيتون..؟..

وأين هذا الدرج الخشبي المتهالك من رخام درج مسكنها الذي تركته هناك، والمطبخ الفسيح، من هذا التجويف الصخري، والحمام الأنيق من حمام هذا المسكن الذي استعيض له عن الباب بستارة من قماش مرقع؟..

وتنهدت المرأة، وهزت رأسها بعنف وكأنها تريد أن تطرد هذه المقارنات المؤلمة من ذهنها، وجلست على أرض الحوش، وبجانبها ابراهيم وهو متعلق بثوبها، بينما كان نمر يستند إلى الحائط الخشبي الذي يفصل هذا المسكن عن المسكن المجاور..

ولم ينطق أحد منهم بكلمة واحدة.. فقد كان الموقف أقسى من أن يفيد معه أي كلام..

وأحست أم ابراهيم بقطرات من الدمع الساخن تنهال على خديها رغماً عنها، فتتجمع عند أسفل ذقنها، لتسقط من ثم على حجرها..

ولكنها لم تحاول ـ قط ـ أن توقفها، ولا أن تمسحها..

ورأى نمر هذه الدموع، وأحس بقلبه يتفطر أسى، ولكنه ظل صامتاً لأنه لم يجد كلمة واحدة يعلق بها على ما يجري..

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

ولكن ابراهيم الصغير لاحظ هذه الدموع . . فأمسك بذقن أمه، وأداره نحوه ليسألها بصوت واجف:

ـ أماه . . هل تبكين؟ . .

ولكنها لم تجب، وظلت الدموع تنهمر، صامتة كالموت، حارة كاللهب، لاذعة كشواظ من الجمر . . .

ـ أماه . . لماذا تبكين؟ . .

كرر ابراهيم سؤاله، ويده لا تزال تدير ذقن أمه نحوه، فهو رغم اعتياده على تقبل المتغيرات التي ظلت تواجههم منذ أن غادروا مسكنهم في عين كارم، فإنه لم يستطع أن يفهم تماماً سبب بكاء أمه الصامت، وعهده بالبكاء أن يكون مصحوباً بأنين حزين . .

وتكلم نمر . .

قال لها بهدوء:

ـ يا خالة أم ابراهيم . . هذا لا يجوز . . الولد لا ينقصه الحزن والأسى، فلا تزيديه على همه، ولا تحمليه أكثر مما يطيق . .

ومسحت المرأة دموعها بطرف غطاء رأسها الأبيض، وهمست بصوت متهدج:

ـ غصباً عني . .

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

ـ أنا أقدّر ذلك.. ولكن ما جرى قد جرى.. وعلينا أن نواجه الأمور بشجاعة، وأن نتدبر أمورنا بحكمة وتعقل..

ـ ماذا بإمكاننا أن نفعل؟..

ـ في ذهني أشياء كثيرة.. ولكنني عاجز عن تركيز تفكيري.. وعلينا أن نتعاون في التفكير..

ـ بارك الله فيك يا نمر.. لست أدري في الحقيقة ماذا كان بإمكاني أن أصنع لولاك..

ـ إنما العون من الله.. وما فعلت أكثر من الواجب..

ـ جزاك الله كل خير..

ـ إن أول ما يجب أن نوجه إليه عنايتنا هو مسألة مدرسة الولد.. يجب أن نعثر له على مكان في أية مدرسة..

ـ هذا ما يشغلني بالفعل..

ـ وسوف آتيك بما أستطيع من أدوات وأثاث للبيت..

ـ أثاث؟.. همست المرأة بمرارة وهي تتذكر أثاث بيتها الذي كان يبهر كل من يراه بجماله وأناقته وكثرته..

ـ فراش وأغطية ووسائد لك وللولد.. بعض أدوات المطبخ.. بضعة كراسي.. شيء ما تدبرين به أمورك إلى أن نعرف علام تستقر الأحوال..

ـ بارك الله فيك يا نمر.. افعل ما تراه..

* * *

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

لم تكن مدينة عمان ـ آنذاك ـ كما هي اليوم عمراناً وجمالاً وازدهاراً..

كانت عام ١٩٤٨، تخطو أولى خطواتها، فجبالها السبعة كانت شبه خالية، إلا من بيوت معظمها من الطين أو الخشب، قد أقيمت على المرتفعات، التي كانت تبدو، بالنسبة لسكان أسفل المدينة، بعيدة المزار، شاقة المرتقى، وكان البناء الحجري والإسمنتي في بداية انطلاقته في مناطق محدودة من المدينة التي كانت ـ كذلك ـ محدودة السكان...

وجاء النزوح الكبير، ينتظم عدة مئات من آلاف الخلائق، من أهل فلسطين، وبخاصة سكان منطقتها الوسطى، لينتشر هؤلاء النازحون بغير انتظام في كل مكان من مرتفعات المدينة، بعضهم استأجر ما استطاع استئجاره من تلك البيوت المتواضعة القائمة في المرتفعات، وبعضهم أقام مسكنه من الخشب، أو الصفيح، أو علب الكرتون الكبيرة التي جعل منها أولئك النازحون جدراناً وسقوفاً يلجأون إليها..

كانت المأساة تتصاعد بقوة وعنف، والمشكلة ـ التي لا مثيل لها ـ تتبلور بصورة مؤلمة لإيجاد أماكن يعيش فيها النازحون...

النازحون؟..

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

كان ذلك لقبهم الذي يشار به إليهم بادىء الأمر، ولكن هذه الكلمة بدأت تختفي بالتدريج من الأفواه، لتحل محلها كلمة أكثر إيلاماً: اللاجئون...

ولم يكن يخفى على الكثيرين منهم، ومن سواهم، المغزى المروّع الذي يختفي وراء الفارق بين الكلمتين...

فكلمة «النازحين» كانت توميء بأن ذلك الخروج من الأرض والبلد هو خروج مؤقت.. مجرد نزوح... يعودون بعده إلى أرضهم وبلدهم ومرابع الصبا والطفولة... أما كلمة «اللاجئين» فقد كانت توحي بمعنى رهيب... لا يستطيع معها أي منهم أن يقدّر مدة هذا اللجوء ولا مداه..

ولكن الكلمة المروّعة باتت، على كثرة الاستعمال، مألوفة رغم مغزاها الذي يقطع الصلة بالماضي، ويكثف الأستار على المستقبل.. ويجعل هذه الأنفس الضائعة، لا تدري عن حاضرها، ولا عن مستقبلها، شيئاً...

وكان نمر قد استطاع العثور على غرفة صغيرة مظلمة، في بيت يقع على مقربة بضع مئات من الأمتار من مسكن أم ابراهيم، فكان يسيراً عليه أن يمر عليها كل يوم تقريباً، ليأتيها بما يلزمها، وليؤمن لها الخبز ـ بعد مشقة ـ فلقد كانت معظم بيوت عمان تعدّ عجين خبزها بأيدي نسائها، ليرسلنه ـ إلى الأفران ليُخبز، أما الأفران التي كانت تبيع الخبز جاهزاً فكانت قليلة جداً، ولكنها تكاثرت بسرعة مع اشتداد موجة

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

الطلب على الخبز من مئات الآلاف من الأفواه الجائعة اللاجئة..

وكانت الصدمة التي آلمت أم ابراهيم أشد الإيلام أنها لم توفق - ولا وفق نمر - في إيجاد مكان للصغير ابراهيم في أية مدرسة من المدارس القليلة التي كانت توجد، تلك الأيام، في عمان...

وحارت ماذا تفعل، لا سيما وأن الصغير نفسه قد سألها أكثر من مرة، وببساطة تامة، متى يذهب إلى المدرسة.. وهل ستكون مثل مدرسته تلك التي خلفها في عين كارم؟..

وكان جوابها، كالعادة، دموعاً ساخنة تجري في صمت على خديها، وإطراقة أليمة يخيل معها للرائي أنها قد انفصلت عن واقعها إلى متاهات من الأفكار لا يعلمها إلا الله...

وكان الطفل قد بات شديد الحساسية تجاه هذه الدموع التي توجع قلبه الصغير حتى الأعماق..

ولقد عودته الأيام التي عاشها منذ النزوح عن عين كارم، كيف يتذكر باستمرار ما يؤلم أمه، وما يسيل تلك الدموع الصامتة على خديها، بحيث يتحاشى - بعد ذلك - أن يقول كلمة تتسبب في تلك الدموع...

لقد كبر الطفل وهو لم يزل في العقد الأول من عمره الغض..

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

وبات لديه عقل يعمل ويفكر في صمت، فيسجل معالم البؤس الذي يعيشان فيه، ويقارن بينه وبين ما كانا عليه من أرضهم.. ويتحاشى أن يرد ذكر أبيه على لسانه.. وكذلك بلدته.. وكذلك كل من يمت إلى ذلك الماضي بصلة، حتى ولو كان اليهودي «يوري» الذي بات يكرهه الآن أشد الكراهية، ويحقد عليه أشد الحقد، فالصورة قد تكاملت في ذهنه بكل تفاصيلها، ولقد دفع هو ـ وأمه ـ ثمن هذه الصورة غالياً غالياً.. دفعه نزوحاً، وتنقلاً، وتشرداً، دون أن يعرف لذلك التشرد سبباً...

كان الطفل كثير الاختلاء بنفسه، يركن إلى جانب من الغرفة المتصلة بالمغارة، ويكشف كمه عن ذراعه الأيسر خلسة، ويروح يتأمل في الوشم الذي قالت له أمه أنه لا سبيل إلى إزالته...

كان وشماً دقيقاً، يتألف من نقاط صغيرة متقاربة، تشكل في مجموعها رسم السمكة، فلقد استخدمت تلك الغجرية إبرة دقيقة حين راحت تنقشه على ذراعه وذراع يوري، لقد شعر ـ ذلك اليوم ـ بآلام هائلة احتملها بصبر، لأنه كان يعتقد أنه إنما يحتمل تلك الآلام في سبيل صداقته للطفل اليهودي... وما علم ـ إلا بعد ذلك بقليل ـ أن آلام الوشم تلك كانت، بالنسبة إليه، بداية لآلام أكبر وأعظم، هي هذه التي يعيشها في هذا المكان وهو الذي اعتاد الجري واللعب

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

على امتداد الساحات الخضر في أرضه الأولى، وبات عليه ـ الآن ـ أن يجلس هكذا، يتأمل الوشم في استغراق، ويرسم في ذهنه تفاصيل لقاء وهمي يتم بينه وبين يوري في يوم من مقبل الأيام...

لم يكن ابراهيم مهتماً بتخيل الطريقة التي سيتم بها لقاؤه مع يوري، ولكنه كان شديد الاهتمام بدقائق الحوار الذي سوف يدور بينهما..

ـ أنت سرقت أرضي.. سيقول له..

ـ أنت أخذت بيتي.. سيقول له..

ـ أنت أخرجتني من بلدي.. سيقول له..

ـ أنت غدّار.. وقاتل. وناكر للجميل.. سيقول له..

ـ أنت شرّدتني بغير خطيئة.. وبغير ذنب.. سيقول له..

ويسترسل ابراهيم في ترتيب كلمات هذا الحوار، يحذف كلمة، ويضيف كلمة، ويستبدل كلمة بكلمة..

كان أشبه برسام حريص على أن تأتي اللوحة التي يرسمها دقيقة وافية، بحيث لا يترك أتفه التفاصيل..

ويسترسل في تأمل الوشم..

ويسدر في وضع كلمات الحوار..

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

ويتذكر، ولا ينسى أبداً، أنه ـ وأمه ونمر وكل أهل بلده ـ قد شردوا بلا خطيئة، وأن هذا الظلم لا يمكن ـ ولا يجوز ـ أن يستمر. . .

* * *

وسارت الأيام بطيئة متثاقلة. .

وتلاشت من الأفواه أحاديث «العودة». . وكلمة «النزوح». . لتحل محلها عبارات اليأس وكلمة «اللجوء». . .

وكان تدبير الحياة اليومية، لا سيما الطعام، هو الشغل الذي صرف الناس عما سواه، فما عادوا يهتمون كثيراً أو قليلاً، بما تنشره الصحف أو تذيعه الإذاعات. . ولا عادوا يكترثون بالتصريحات الحماسية اللاهبة التي يعلنها «الزعماء». . . ولا عادت تشغلهم أخبار جلسات الأمم المتحدة، ولا مجلس الأمن. . ولا حتى أنباء اجتماعات لجان الهدنة لترسيم «الحدود» على خطوط وقف إطلاق النار. . ولا أنباء المجازر الوحشية التي ظل الصهيونيون يرتكبونها بغية تهجير أكبر عدد ممكن من أهل فلسطين الشرعيين، وتحذير الآخرين من مجرد التفكير في العودة إلى أراضيهم وأملاكهم وبيوتهم. . .

لقد استوى عندهم كل شيء. . الحق والباطل. . الأمل واليأس. . الأمس واليوم. . الماضي والمستقبل. . الليل والنهار. . كلها ـ كلها ـ باتت كلمات من غير مدلول، لأن آلة

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

الحياة الرهيبة ـ في سعيهم البائس ـ قد سحقت قلوبهم، وأوجدت فيها تلك الحالة من عدم الإكتراث..

أما أم ابراهيم، فقد كان بقاء ولدها بلا مدرسة يقلقها أشد القلق، فهي تتذكر الآمال التي كانت تعقدها، وزوجها الراحل، على هذا الابن الوحيد، وكيف كان حديث «مستقبل الولد» هو حديثهما المفضل الذي لا يملان أبداً من الخوض فيه باستمرار...

كان الأب حريصاً كل الحرص على أن يهيىء لولده أفضل فرص التعليم وأعلاها مستوى، فما كان يقبل بأقل من الجامعة مستوى يصل إليه ابراهيم في تعليمه، ورغم أنه كانت تفصلهم عن ذلك المستوى سنوات طوال، إلا أن الأب كان يفكر ويخطط، ويحاول المفاضلة بين الجامعات.. هل يرسله إلى الجامعة الأميركية في بيروت.. أم يرسله إلى جامعة دمشق.. أم يرسله إلى جامعة بغداد، أم يرسله إلى إحدى جامعات مصر.. وهي الجامعات العربية التي كان الشباب العرب، ومنهم الشباب الفلسطينيون، يتوجهون إليها لإكمال دراساتهم العليا..

ولئن رحل أبو ابراهيم، فإن أم ابراهيم لم تتخل عن هذا الهدف، ولا هي نسيته وسط الظروف القاسية التي كانت تعيش فيها...

كانت تجلس في ركن من الغرفة الوحيدة في مسكنها

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

الضيق، لتفكر في هذا الأمر الذي لم يكن يشغلها سواه.. ولهذا كان شعورها بالصدمة عنيفاً عندما تبين لها أن من غير الممكن أن يستأنف ابراهيم دراسته الإبتدائية، فكيف يصل - إذن - إلى الجامعة ويحقق أحلام أبويه؟..

وتواردت إلى ذهنها خواطر وحلول عديدة، وفكرت في التوجه إلى بلد عربي آخر، إلى سورية مثلاً، علها تجد لولدها مكاناً في مدرسة.. ولكن من يضمن لها ذلك، وماذا تصنع هناك بينما معظم أهل بلدتها معها هنا في عمان، لا سيما نمر - جزاه الله خيراً - الذي كان يقوم على شئونها وشئون ولدها وكأنه مسئول عنهما، مع أن شهامته وحدها هي الصلة التي تربطه بهما..

كان نمر قد وجد عملاً كميكانيكي في إحدى ورش إصلاح السيارات، فهذا هو عمله الأساسي، وكان يشاركها القلق والألم حول مستقبل «الولد» وضرورة إيجاد مكان له في أية مدرسة، ولكن جميع الجهود التي بذلها في هذا السبيل قد باءت بالفشل...

وذات يوم جاء نمر وعلى وجهه معالم غريبة من المعاني المتناقضة ما بين اليأس والأمل...

قال لها وهو يجلس على الأرض تجاهها:

ـ عندي لك نبأ.. ما أدري إن كان لك أن تفرحي به أو أن تحزني..

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

فابتسمت بتلك المرارة التي أصبحت جزءاً طبيعياً من شعورها:

ـ ما عاد هناك شيء يحزنني أكثر مما أنا فيه.. ولا عاد شيء يفرحني بعد أن فقدت الغالي من الزوج والبيت والوطن، فقل ما عندك ولا تخش عليّ...

ـ يقولون أن الأمم المتحدة قد أنشأت وكالة لإغاثة اللاجئين الفلسطينيين..

ـ لم أفهم.. ما معنى هذا؟..

ـ معناه هو اليأس والضياع.. معناه أن العودة إلى بلدنا وأرضنا لم تعد موضوعاً للبحث.. وأن الموضوع الوحيد الذي يشغل جماعة الأمم المتحدة الآن هو محاولة مساعدتنا على حياة التشرد التي نعيشها...

ـ أيضاً لم أفهم.. أرجوك يا نمر.. كلمني على قدر ما أستطيع أن أفهم..

ـ بدون تطويل.. أنشأت الأمم المتحدة وكالة أطلقت عليها اسم وكالة إغاثة اللاجئين الفلسطينيين..

ـ إغاثة.. لاجئون؟..

همست أم ابراهيم بتلكما الكلمتين وفي قلبها من اللوعة ما يشبه جمراً يتقد بالنار.. واستطرد نمر في حديثه:

ـ يقولون أن هذه الوكالة سوف تقدم لنا المعونة..

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

طعاماً ومساكن ومدارس..

ـ مدارس؟..

هتفت المرأة باهتمام شديد، فقد وجدت أن في الأمر شيئاً يهمها..

ـ أجل.. هكذا يقولون.. وطبعاً لا يخفى عليك، يا أم ابراهيم، معنى هذا.. إن معناه، وبكل بساطة، أنهم يريدون إبقاؤنا حيث نحن.. وأن العودة الموعودة إلى ديارنا ليست سوى حديث خرافة...

واسترسل نمر في شرح الموضوع.. قال أن المؤامرة قد تكاملت فصولها، وأن النزوح الذي أجبروا عليه لم يكن مؤقتاً كما قيل لهم إذ ذاك، وإنما هو لجوء إلى أجل غير مسمى.. وإن إنشاء «وكالة إغاثة اللاجئين الفلسطينيين» ليس له من معنى سوى إبقاء كل شيء على حاله، وأن العودة ليست واردة في حساب الذين تآمروا على الشعب الفلسطيني، وأن أي بصيص من أمل في الغد، أو المستقبل، قد بات حلماً بعيد المنال على كل من خرج من أرضه الفلسطينية... وأن عليها أن تتدبر أمرها على هذا الأساس...

وتساءلت أم ابراهيم:

ـ وماذا تريدني أن أصنع؟..

ـ في رأيي أن تستفيدي من هذه الفرصة.. صحيح أنها

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

فرصة تعسة لا تقارن بأية حال ببلدنا وموطننا، إلا أن علينا أن نتكيف مع الظروف.. لقد تقرر وضع لوائح بأسماء النازحين.. أقصد اللاجئين الفلسطينيين.. بواسطة مخاتير القرى وأحياء المدن.. وبموجبها ستنشأ مخيمات نوضع فيها.. وتتولى الوكالة التي أنشئت الإشراف على شؤوننا...

ـ وستنشىء هذه الوكالة مدارس لأولادنا؟..

سألت أم ابراهيم باهتمام شديد...

ـ أجل...

ـ إذن.. أرجوك يا نمر أن تساعدني.. وأن تقدم اسمي واسم ولدي لهذه الوكالة التي تتحدث عنها.. علني أستطيع أن أؤمن لولدي مكاناً في مدرسة...

* * *

وهكذا انشغل النازحون ـ الذين باتوا «لاجئين» رسمياً في نظر الأمم المتحدة ـ بمواجهة الوضع الجديد الذي خلقه إنشاء «الوكالة» فقد كانوا جميعاً من الفقراء الذين عانوا أشد المعاناة للحفاظ على بقائهم منذ أن خرجوا من بيوتهم وديارهم في الأرض المغتصبة، ووجدوا في الوكالة الجديدة خيطاً رفيعاً من الأمل في أن يتمكنوا من الاستمرار في الحياة، ريثما يرى الذين أخذوا «القضية» على عواتقهم رأيهم، ويستقروا على الطريقة المثلى لإعادتهم إلى أرضهم...

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

وتحولت أماكن التجمعات التي أقام فيها اللاجئون إلى مخيمات تضم أعداداً هائلة منهم، بعضهم أقاموا في خيام مؤقتة، وبعضهم أقاموا في بيوت من الحجر والإسمنت أنشأتها الوكالة...

وتسارع اللاجئون إلى تسجيل أسمائهم لدى «المخاتير»، الذين كانوا يقدمون لوائح الأسماء للوكالة التي كانت تقدم المأوى، ويا له من مأوى، والغذاء، ويا له من غذاء، لمن أدرجت أسماؤهم في تلك اللوائح، واعتمدوا ـ رسمياً ـ لدى الأمم المتحدة كلاجئين فلسطينيين..

وبالجهود الجبارة التي بذلها نمر، حصلت أم ابراهيم وولدها على مأوى يتألف من حجرة ومطبخ وحوش، أنشىء، كسواه، بطريقة اعتباطية في مخيم «جبل الحسين».. وحين دخلت هذا المأوى، وأجالت بصرها فيه، حمدت الله في سرها، فهو ـ على أية حال ـ خير من لا شيء، كما أنه وفر عليها أجرة المأوى الذي كانت تقيم فيه...

وكان نمر يلاحظ ـ بارتياح تعس ـ كيف أن هذه المرأة الشجاعة قابلت، وتقابل، ما يصيبها من نتائج النزوح، بجلد وصلابة، غير عالم بما يدور في ذهنها من مقارنات تجريها باستمرار بين ما هي عليه الآن، وبين ما كانت عليه منذ أشهر قليلة، أشهر قليلة ليس غير، كان زوجها قبلها إلى جانبها، وكان لها بيتها وأرضها ومزرعتها، ولكنها قد تعلمت ـ والزمن

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

أقسى معلم ـ أن تكبت مشاعرها، وتكتم آلامها، فالبؤس عادة كما أن النعيم عادة، ولئن كانت قد اعتادت النعيم من قبل، فهي قد بدأت في الاعتياد على البؤس..

وكان هناك سبب آخر حدا بها إلى الحرص على كتمان مشاعرها وأحاسيسها، وهو ولدها ابراهيم، الذي كانت مشاعره متصلة بمشاعرها بذلك الرباط الروحي الخفي الذي يصل ما بين الأم وولدها.. يفرح إذا فرحت.. ويتألم إذا تألمت.. ويغضب إذا غضبت.. ويرضى إذا رضيت..

واستطاع نمر ـ جزاه الله كل خير ـ أن يسجل «الولد» في المدرسة التي كانت عبارة عن خيام كبيرة، نصبت بحيث يتسنى للطلبة الوصول إليها دون عناء...

أما المدرسون، فكانوا خليطاً من الأساتذة المتخصصين، ممن نزحوا مع النازحين وآخرين تعاقدت معهم الوكالة، إلى جانب طلبة الفصول المتقدمة الذين تولوا التدريس لطلبة الفصول الإبتدائية...

المهم، في نظر أم ابراهيم، أن «الولد» لم يحرم من الدراسة، وأن بوسعه أن يكملها وأن يواصل تعليمه إلى الجامعة، كما كان أبواه يحلمان.. وكانت هذه الفكرة تمثل سعادة الدنيا كلها في نظر الأم البائسة..

ومرة أخرى.. رأى ابراهيم أمه تبكي بدموعها الصامتة..

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

كـان ذلك يـوم وقفت في صف طويـل لتأخـذ الحصة الشهرية المقررة، من قبل الوكالة، لكل لاجىء..

وكـانت حصة الشخص الـواحد في الشهـر هي: عشر كيلوجرامات من الـطحين، وربع كيلو من السمن، ونصف كيلو من السكـر، وربـع كيلو من الـرز، وقـطعـة صـابـون واحدة..

أجل..

بهـذه الكمية من المـواد، كـان على أبنـاء النكبـة أن يعيشوا، وأن يقيموا أودهم..

وحين حمل لها نمر حصتها وحصة ولدها إلى المأوى، جلست أمـامها، وقـد وضعت يدهـا على خدهـا، وراحت دموعها تنهال بغزارة، وجسدها يهتـز ببكاء صـامت.. فلقد اتجه ذهنها في الحال ـ كما اعتاد أن يتجه دائماً ـ إلى بيتها الذي خلفته هناك، والذي يسكنه الغرباء الغاصبون...

لقـد تركت في منـزلها أضعـاف أضعاف هـذه الكميـة الضئيلة، في الغرفة الخاصة بالمؤونة، والتي كانوا يسمونها «بيت المـونـة» حيث تكـدست أكيـاس الــطحين، والـرز، والسكر، وصفائح السمن، والزيت، وصناديق الصابون، إلى جانب الخضار المجففة واللحوم المقددة...

الآن بات عليها أن تعيش على هذه الحفنة الضئيلة من

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

الغذاء، وأن تدبر حياتها وولدها على هذا الأساس..

وإذ دخل ولدها حاملاً كتبه وكراريسه عائداً من المدرسة، شعرت بأن كل ما في قلبها من هموم قد انزاح، وأن في وسط هذا الظلام الذي تعيش فيه، ضوءاً من أمل، يتمثل في ولدها وفلذة كبدها، وهو يكبر وينمو، ويواصل تعليمه، ويغدو رجلاً قادراً على أن يستعيد، بقوة ساعده، أرض أبيه وجده التي اغتصبت منهم ظلماً وعدواناً...

* * *

ومرت سنوات..

الحياة فيها واحدة رتيبة لا يتغير لها إيقاع. ولا يتبدل فيها شيء...

أم ابراهيم تتعهد ولدها بالرعاية والعناية والأمل..

وابراهيم ينتقل من فصل إلى فصل في نجاح حقق به حسن ظن أمه فيه...

أما نمر، فقد ترك عمله كميكانيكي، وعمل كسائق شاحنة ما بين عمان وبيروت حاملاً، في الذهاب والإياب أنواعاً مختلفة من الشحنات، وأنواعاً مختلفة من الأخبار...

كان نمر يحرص على أن يزور أم ابراهيم في كل مرة يعود فيها إلى عمان، منتظراً تفريغ شاحنته وملئها بشحنة أخرى مرسلة إلى دمشق أو بيروت...

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

وكان يتحدث إليها مطولاً بما لديه من أخبار عن «القضية».. مما يسمعه ويقرأه في رحلاته ولقاءاته وصحف المدن التي يمر بها...

وكان ابراهيم ـ وقد بات الآن شاباً في عنفوان الفتوة ـ يصغي إلى أحاديث نمر باهتمام، ويناقشه فيها، ويحاول أن يعرف منه خلفياتها وخفاياها.. فالطفل الذي خرج من بلده وأرضه شبه مغمض العينين، قد تفتحت عيناه وقلبه وروحه، وأصبح بوسعه أن يسمع وأن يفهم، أن يقرأ وأن يدرك، وصارت له آراؤه ونظريات، وما كان يزعجه شيء قدر أن ينظر إلى ذلك الوشم المشؤوم الذي نقشه ـ بصبيانية طائشة ـ على باطن ذراعه، رمزاً لصداقة موهومة لصديق موهوم، هو ـ في واقع الأمر ـ عدوّه، وعدو بلده وقومه...

وكان الحدث الذي هزّ الأسرة الصغيرة، أم ابراهيم وولدها، هو يوم جاءهم نمر بهدية عجيبة من بيروت...

كانت الهدية عبارة عن جهاز راديو، أكبر قليلاً من حجم الكف، ويعمل على بطاريات صغيرة، ولا يحتاج إلى سلك للكهرباء، وهو ـ ومع ذلك ـ واضح الصوت، نقي النبرة، يمكن للسامع أن يصغي منه إلى جميع الإذاعات...

وتجمع الجيران حول هذه الأعجوبة، يسمعون ـ غير مصدقين ـ مختلف الإذاعات، وكل منهم يبدي دهشته واستغرابه وإعجابه، بما وصل إليه العلم من إنجاز...

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

ووجدت أم ابراهيم، وجيرانها، في هذه الهدية تسلية يقضون معها ساعات طوالاً، يصغون إلى الأخبار، ويسمعون التعليقات والبرامج والأغاني، ولاحظوا، جميعاً، ملاحظة غريبة بعض الشيء... فما يكاد يمر يوم إلا ويسمعون من هذا الراديو اسم فلسطين يتردد في جميع الإذاعات.. أخبار عن فلسطين.. خطابات عن فلسطين.. تعليقات عن فلسطين.. أغانٍ وأناشيد عن فلسطين.. فكان رد الفعل الطبيعي لديهم كل مرة يسمعون فيها اسم فلسطين، هو نظرات حائرة، بائسة، يجيلونها في الجحور التي يعيشون فيها، وألم قارص في الأحشاء ما عرفت سوى ذلك النزر اليسير من الطحين والرز والسكر مما توزعه عليهم الوكالة.. أما فيما عدا ذلك، فكل شيء باقٍ على حاله.. سنوات طويلة مضت ـ يكادون ينسون عددها ـ وهم في هذه المخيمات، والعدو سادر في غيّه، يواصل غاراته الوحشية، ويرتكب مجازره الدموية، ويعتدي كل يوم تقريباً، من غير أن تفلح أية أغنية ولا أي تعليق، ولا أي برنامج من ذاك الذي يذاع عن فلسطين في إيقافه عند حده...

وكان ابراهيم، وقد غدا اليوم شاباً تفخر به أمه، يردد هذه الأفكار، بعبارات محتدمة بالغضب، فقد أصبح يدرك الآن أبعاد المأساة كلها، ويعرف لماذا عاش كل تلك السنوات في هذا المأوى الذي أعطتهم الوكالة إياه بديلاً عن بيتهم الكبير الذي بقيت في ذاكرته ملامح منه، فجاءت

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

أحاديث أمه توضح تلك الملامح، وتضيف إلى الصورة أدق التفاصيل. . . أصبح يعرف أنه ليس أكثر من ضحية لمؤامرة دولية كبرى، وأن مأساته ومأساة شعبه لم يسبق لها مثيل في التاريخ، وأن الدوران في متاهات الحلول والمقترحات المطروحة، ما هو إلا من قبيل إضاعة الوقت، وأن ما قاله نمر مرة صحيح كل الصحة حين تمنى لو أن واحداً من أولئك الذين يتحدثون عن فلسطين من المهيمنين على الأمم المتحدة، قد قضى ليلة واحدة فقط في واحد من المخيمات التي يعيش فيها هؤلاء المشردون بلا خطيئة، فلربما تحرك فيه عرق من إنسانية يجعله يرى الحق كما يجب أن يرى. . ولعله ـ يستطرد نمر قائلاً ـ يأكل لقمة واحدة من الطعام الذي تقدمه الوكالة، فلربما رفّ في عينيه جفن من حياء، يجعله يكف عما هو فيه من تقديم العون للعدو بلا حساب، وتثبيت أقدامه في الأرض المغتصبة، وتكريس وجوده على حساب مليونين من اللاجئين الذين شردوا تحت كل سماء. .

* * *

ومع أن أم ابراهيم كانت مقتنعة بما يقوله نمر، وما يقوله ولدها، والآخرون، إلا أن همها كان محصوراً ـ كله ـ في ابراهيم، تتابع دراسته باهتمام، وترقبه وهو يجتاز الفصول الدراسية بفرح، وتشعر بأنها لا تعيش عبثاً، بل إنها تقترب من هدفها بالتدريج، وأن ولدها قد بات قاب قوسين أو أدنى

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

من أملها الكبير وهو أن يدخل الجامعة، ليصبح طبيباً أو مهندساً أو محامياً...

وكان نمر قد ساعدها قبل سنوات على إيجاد عمل تعتاش منه، وتضيف من مورده الضئيل شيئاً على ثروتها الصغيرة التي أعدتها لكي يكمل ولدها بها تعليمه...

فبعد أشهر قليلة من الإنتقال إلى المخيم، لاحظت أم ابراهيم بقلق شديد ـ أنها قد اضطرت عدة مرات لأن تأخذ شيئاً مما تدخره، لكي تشتري لولدها ملابس، أو لكي تذيقه، مرة كل عدة أشهر، طعم الفواكه التي لم تكن واردة فيما تقدمه «الوكالة» من غذاء يسير...

وقلبت وجوه الأفكار كثيراً وهي تحاول أن تجد حلاً لهذه المشكلة، ووجدت أن الحل الوحيد الممكن، بالنسبة لها، هو أن تعمل...

وهالتها الفكرة بادىء الأمر، حين خطرت لها، إذ لم يكن بوسعها ـ وهي التي كانت سيدة منزلها في عين كارم ـ أن تقوم بغير مثل هذا العمل.. وبعبارة أخرى ـ قالتها لنفسها بجرأة ـ أن تقوم على شئون بيت من البيوت، تكنس وتمسح وتغسل وتطهو، بصرف النظر عما يسمى هذا العمل في نظر الآخرين...

وجدت نفسها تتردد لأكثر من سبب، فهي ـ من جهة ـ تعتز بما كانته قبل النكبة، وهي ـ من جهة أخرى ـ تخشى

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

على ولدها من أن يسيء ذلك إلى مشاعره بعد أن بات شاباً يعي ويفهم.. وفوق هذا فهي لا تعرف أحداً تعمل عنده، وتخجل ـ بل تموت من الخجل ـ إن هي طرقت أبواب الناس تسألهم إن كانوا في حاجة إلى... خادمة...

وتذكرت نمر، فهو ولا ريب يعرف أحداً يمكنه أن يتوسط لديه لكي تعمل عنده، كما يمكنها أيضاً أن تستشيره في الأمر كله وترى رأيه فيما اعتزمت..

ومضت تنتظر وصول نمر من إحدى رحلاته المعتادة، بل ووجدت في نفسها لهفة على مجيئه جعلتها تسأل الآخرين عما إذا كانوا قد رأوه...

وإن هي إلا بضعة أيام حتى جاء نمر كالمعتاد، زائراً، وهو يحمل كيسين كبيرين من الورق ملأهما بالفواكه التي اشتراها للمرأة وابنها من بيروت...

وبعد أن جلس بعض الوقت، واطمأن على أحوال أم ابراهيم وسأل ابراهيم عن دراسته، نهض واقفاً يريد أن يغادر المكان، ولكن أم ابراهيم أشارت إليه من طرف خفي بأن يبقى، وأن لديها شيئاً تريد أن تسر به إليه، فعاد إلى الجلوس وهو ينتظر ـ مع المرأة ـ أن يخلد ابراهيم إلى النوم، كي يسمع منها ما تريد أن تقول..

ونام ابراهيم أخيراً، والإثنان ينظران إليه، ثم نهضت أم ابراهيم وهي تحمل حصيراً صغيراً فرشته في «الحوش»

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

فجلست عليه، وأشارت إلى نمر بأن يجلس على كرسي صغير كانت قد ابتاعته عندما سكنت في عمان لدى أول مرة جاءت فيها..

ودار الحديث بين الإثنين بصوت خافت..

قال نمر:

ـ خيراً إن شاء الله يا أم ابراهيم.. هل هناك شيء..

ـ أجل.. هناك موضوع أريد أن أستشيرك بشأنه وأن تساعدني فيه إذا وجدته مناسباً..

ـ إنني مصغٍ..

ـ لقد خطر لي.. خطر لي.. لست أدري كيف أبدأ الحديث.. خطر لي أنه قد يكون من المستحسن أن.. أعمل..

ـ تعملين؟.. لماذا؟..

ـ تكاليف الحياة ثقيلة يا نمر.. وما تقدمه الوكالة لا يكاد يسد الرمق.. وأنت تعلم أنه ليس لي في هذه الحياة من أمل سوى هذا الولد... أريده أن يكمل تعليمه حتى أعلى مراحله...

ـ آه... فهمت...

وأطرق نمر، وراح يعمل ذهنه بسرعة محاولاً أن يجد

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

نوعاً من العمل يناسب هذه المرأة التي أبدت من ضروب الصبر والإحتمال ما لم يكن يتوقعه من امرأة مثلها عاشت، من قبل، عيشة هانئة رضية، وها هي الآن ـ بعد سنوات من النزوح ـ تطلب إليه بلسانها الذي اعتاد من قبل أن يأمر وينهى، أن يجد لها عملاً...

ما هو العمل الذي تستطيع امرأة مثلها أن تقوم به إلا إذا.. إلا إذا كان..

والتقت عيناه بعينيها، وكأنما كانت ترافق أفكاره في استرسالها، وارتسمت ابتسامة بائسة على شفتيها وقالت وكأنها تجيب على التساؤل الذي دار في خاطره:

ـ لم لا؟.. أحسب أنه ليس أمامي سوى هذا العمل..

ولم تجد حاجة لأن توضح ما هو هذا العمل، ولا هو سألها، فهما متفاهمان ضمناً، ولا داعي لزيادة الموقف حرجاً بذكر الأشياء بأسمائها...

وقال لها بارتباك:

ـ إذا كنت تشكين من ضائقة.. فعندي بعض المال الذي ادخرته من عملي.. إنك تعرفين أنني لا أصرف كثيراً.. ويمكنني أن أمدك بما تحتاجين إذا شئت..

ـ فيك الخير والبركة يا نمر.. لست أريد أن أثقل عليك أكثر مما فعلت.. ولولاك ما كان يعلم إلا الله ماذا كان

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

يمكن أن يحدث لنا.. لقد كفيت ووفيت يا نمر.. جزاك الله كل خير.. إنني لا أريد منك سوى أن تجد لي عملاً.. هذا هو كل ما أريده.. وهو فضل آخر من أفضالك لا أنساه...

ـ أنت مصممة إذن؟..

ـ كل التصميم..

ـ إذن.. أمهليني بضعة أيام.. وسأرى ما يمكنني أن أفعل..

* * *

وهكذا بدأت أم ابراهيم تعمل..

لقد وجد لها نمر عملاً عند موظف مرموق في الجمرك يدعى «مختار أفندي».. لديه سيارة «فوكسهول» سوداء صغيرة، وله فيلا مؤلفة من دور واحد فيها أربع غرف واسعة، وكانت له زوجة وأربعة أولاد وأم عجوز...

وكانت أم ابراهيم حريصة على ألا يعرف ولدها نوعية العمل الذي تقوم به، فقد قالت له أنها وجدت عملاً كمربية لطفلة صغيرة، ولكن ابراهيم أبدى امتعاضه، فهو لا يرضى لأمه بأن تعمل لدى الناس ولو في عمل سهل كعمل المربية... ولكنها استطاعت إقناعه، بعد لأي، بأنه لا بد من ذلك ـ لأن لديها فسحة طويلة من الوقت، وتجد في هذا العمل متعة تخفف عنها وطأة الضجر..

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

وعبثاً حاول ابراهيم أن يعترض، فقد أصرت الأم، وبات عملها أمراً واقعاً تعيشه الأسرة الصغيرة..

وقسمت أم ابراهيم وقتها بين مسكنها ومنزل مختار أفندي، تعد لولدها فطوره قبل أن يذهب إلى المدرسة في وقت مبكر، ثم تجتاز المسافة الطويلة بين المخيم ومنزل مختار أفندي، سيراً على الأقدام، ملتفة بملاءتها السوداء، حتى إذا وصلت إلى منزل مخدومها، أقبلت على العمل، تغسل الصحون، وتكنس الأرض، وتمسحها، وترتب الأثاث، وتساعد زوجة مختار أفندي في الطهو، وتسقي مزروعات الحديقة الصغيرة المحيطة بالفيلا، وتمسح سيارة مختار أفندي وتعني بالأولاد.. عمل متواصل لا يتوقف ولا يهدأ، من الصباح الباكر إلى العصر، تقبل عليه المرأة بكل همة ونشاط، لتحصل في نهاية الشهر على خمسة دنانير، وهو مبلغ ليس بالقليل في ذلك الوقت، إلى جانب ما تأخذه معها يومياً من الطعام الذي تصر زوجة مختار أفندي على تزويدها به.. وبذلك استطاع ولدها ـ وهذا هو المهم ـ أن يأكل كما يأكل الناس العاديون.. لحم.. خضار.. فواكه.. دجاج..

لقد كانت أم ابراهيم فخورة ـ بينها وبين نفسها ـ بما تعمل.. فأروع أنواع العمل هو، ولا ريب، ذاك الذي نقوم به في سبيل الآخرين، فهو الحسنة التي يتقبلها الله تعالى

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

ويجزي عليها، فكيف إذا كان من أجل ولدها ورجل بيتها ابراهيم؟..

* * *

كانت ثاني مرة زغردت فيها أم ابراهيم منذ أن حلت بها النكبة هي يوم ظهرت «نتائج التوجيهي»، وتبين أن ولدها نجح في الامتحان..

لقد شعرت بأنها كسبت معركة.. وهان إزاء هذا النبأ كل ما عانت وتعاني من التعب والشقاء وشظف العيش.. فالولد قد بات على أبواب الجامعة.. أي أنه يقترب بسرعة من الهدف الذي من أجله تعيش...

ولعلنا نذكر أن المرة الأولى التي زغردت فيها، كانت يوم أن قيل لها أن شاحنتها الصغيرة قد أسهمت، بشكل ما، في الجهاد ضد الغاصبين يوم وهبتها للمجاهدين بلا تردد أيام كانت تقيم في حي البقعة بالقدس...

وفيما عدا هاتين الزغرودتين، فإن قلب المرأة التعسة كان يرقد تحت ركام من جليد اليأس، والحزن والألم...

فالأخبار التي تأتيهم إلى المخيم، لم يكن فيها شي يدعو إلى التفاؤل أو الإرتياح... مزيد من الإعتداءات الإسرائيلية الوحشية.. وبعضها يتناول المخيمات الفلسطينية في المناطق غير المحتلة..

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

ومزيد من التفرق والتمزق في الصف العربي، لألف سبب وسبب..

ومزيد من التخبط في السياسة العربية ذات التماس المباشر مع القضية..

ومزيد - بعد هذا كله - من اليأس، والضياع، والتشرد...

* * *

وذات يوم، وكان ذلك بعد أسابيع قليلة من حصول ابراهيم على الشهادة الثانوية، لاحظت أم ابراهيم أن ولدها ونمر يتحدثان بصوت خافت في اهتمام تارة، وفي حدة تارة أخرى، حتى إذا ما اقتربت منهما - عامدة - تحدثا بصورة عادية وكأنهما يخفيان شيئاً عنها..

وانتابها القلق.. وحاولت أن تخمن الأسباب التي تجعل الرجلين يتحدثان في أمر يخفيانه عنها.. ولكنها لم تستطع..

وحاولت أن تبحث مع الإثنين موضوع اختيار الجامعة المناسبة لإبراهيم، ومن ثم اختيار الكلية التي سيكمل تعليمه فيها.. ولكنها فوجئت بأن الإثنين زاهدان في مثل هذا الحديث.. ويريان أنه ما زال هناك وقت ما دامت العطلة الصيفية في بدايتها، ولم يحن - بعد - موعد تقديم طلبات

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

الإنتساب إلى الجامعات..

وبغريزة الأم الملهوفة، أدركت أن هناك سراً لا تعرفه، خاصة وأن ولدها صار يكثر من الحديث عن استمرار الظلم اللاحق بالشعب الفلسطيني، واليأس من أن تستطيع السياسة العربية، بأسلوبها القائم إذ ذاك، أن تفعل شيئاً لوضع حد لمأساة هذا التشرد الذي ليس له مثيل..

وكانت الأم تقول له:

ـ ماذا نستطيع أن نفعل، يا ولدي، ونحن كما ترى؟.. لقد أعمى الجري وراء لقمة العيش قلوبنا.. فماذا نستطيع أن نفعل؟..

ـ نرفع رؤوسنا.. ونفتح عيوننا وقلوبنا.. و.. نقاوم..

ـ نقاوم؟.. نقاوم من؟..

ـ نقاوم الذين سلبونا أرضنا وبلادنا ومالنا.. وحياتنا...

ـ وكيف السبيل إلى ذلك وجيوش بأكملها عجزت عن ذلك؟.. هل نسيت ما حدث عندما اعتدى الإسرائيليون والإنجليز والفرنسيون عام ١٩٥٦؟...

ـ ليس معنى هذا أن نخلد إلى الخدر والاستسلام.. المهم أن نقاوم.. أن نرفع صوتنا.. أن يعرف العالم أن هناك شعباً بأكمله قد شرد بلا خطيئة ولا ذنب..

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

ـ كلامك هذا مخيف يا ولدي.. لا شأن لنا بهذا.. ليس عليك أنت سوى أن تواصل دراستك... هذا ما يهمني...

ـ وماذا أصنع بالشهادة إذا أنا لم أعمل بها في بلدي؟.. وهل نظل طول حياتنا على ما نحن عليه؟ لا.. لا يا أماه.. عندما يرتفع نداء الوطن تصمت الأنانية والفردية والمصالح الشخصية..

ـ إنك تقلقني بهذا الكلام.. فماذا تقصد منه؟..

ووجد ابراهيم أنه قد استرسل في الحديث أكثر مما ينبغي، فتضاحك، وغير الموضوع بلباقة...

ولكنه جاء أمه بعد أيام ليخبرها بأنه سيغيب عنها بعض الوقت..

وضربت الأم صدرها في خوف وتساءلت:

ـ لماذا؟.. وإلى أين ستذهب؟..

ـ ما بك يا أماه؟.. لم انزعجت هكذا؟..

ـ قل لي بسرعة.. إلى أين ستذهب.. وكم ستغيب؟.. ولماذا؟..

ـ سأذهب إلى القدس...

ـ القدس؟.. وما تصنع فيها؟..

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

ـ أريـد أن أراها . . لقـد سمعت عنها كثيـراً . . هناك بعض الزملاء الذين يريدون الذهاب إليها فأبديت لهم رغبتي في مرافقتهم . .

وغامت عينا المرأة وهي تسمع كلمة «القدس»، فلقـد اعتادت إليها ذكريات أيـام سلفت، كانت فيهـا سيدة بيتهـا ومزرعتها، وكان زوجها معها وحياتها تسير سيرها الطبيعي . .

تلك الأيام، حدثت أم ابراهيم نفسها وهي تعود بذاكرتها إلى الـوراء، كانت زيـارة القدس جـزءاً من الحياة اليـومية لأهالي «عين كارم»، يـذهبون إليهـا ويعودون منهـا في أي وقت، وكان أبو ابراهيم يذهب أحياناً ويعود في اليوم الواحد عدة مرات وفق احتياجات حياتهم، وكانت هي ترافق زوجها إما للتبضع أو لزيارة الأقارب والصديقات المقيمات، أو اللاتي كن مقيمات بالأصح في حي البقعة وغيره، وكان كل شيء، إذ ذاك، على ما يرام، أما اليوم . . .

وتدحرجت دمعة ساخنة على خدها وهي تصل بأفكارها إلى الواقع المرير الـذي تعيش فيه، فـلاحظ ابراهيم ذلـك وتملكه الأسى فهتف بها جزعاً:

ـ أماه . . ما بك؟ . . إنني لن أغيب كثيراً . . إنه يوم أو يومان على الأكثر . . وأعود إليك بإذن الله . .

ومسحت الأم دمعتهـا، وتنهدت بحـرقة، ونـظرت إلى ولدها نظرة تائهة وهي تقول في وجوم:

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

ـ كان بودي أن نذهب معاً.. ولكنني لا أستطيع للأسف.. فأنا مرتبطة بعملي هنا.. القدس؟.. آه يا ولدي كم أشتاق إليها.. إنها لا تبعد كثيراً عن بلدتنا عين كارم.. كنت أذهب إليها أنا وأبوك كثيراً.. كثيراً جداً في تلك الأيام..

كانت الأم تقول هذه الكلمات وتظرتها تلك تدل على أنها كانت تخاطب نفسها، وتستعيد ذكرياتها وتفكر في أيامها السعيدة السالفة..

وقال لها ولدها متضاحكاً:

ـ إننا مجموعة من زملاء الدراسة.. سنذهب كلنا معاً.. وإذا شئت ذهبنا مرة أخرى، أنت وأنا، بعد أن أكون قد عرفت المدينة وتعرفت إليها جيداً..

واغتصبت الأم ابتسامة وهي تهمس:

ـ تروح وترجع بالسلامة يا ولدي...

ومع أنها اطمأنت بعد أن أوضح لها ولدها سبب غيابه عنها، إلا أن القلق عاد يغزو قلبها بشدة عندما أراد ولدها أن يودعها قبل سفره، إذ ضمها إلى صدره بقوة، وأمطر وجهها بالقبلات الحارة، وحين ابتعد عنها عاد مرة أخرى يعانقها ويقبلها، وكأنه يودعها إلى غير لقاء، فتمسكت به بيديها الإثنتين، وقالت له في لوعة بصوت مبحوح من الخوف والقلق:

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

ـ ابراهيم.. يا ولدي.. قل لي.. ماذا هناك؟..

ـ ليس هناك شيء.. لا شيء إلا الخير إن شاء الله.. ولكنك تعلمين.. إن هذه أول مرة نفترق فيها عن بعضنا فعزّ عليّ هذا الفراق ولو ليوم واحد..

ـ ووجدت الأم في هذه الكلمات ما طمأنها، فعادت تقبل ولدها وهي تقول له:

ـ تروح وترجع بالسلامة يا ولدي.. انتبه لنفسك جيداً..

* * *

منذ أحداث عام ١٩٤٨، عام النزوح والنكبة، كان شريط الحدود الذي يفصل بين الأراضي التي اغتصبها اليهود، والأراضي التي بقيت في أيدي العرب، متداخلاً ومتشابكاً بشكل يصعب معه التمييز بين الجانب المحتل والجانب الآخر من شريط الحدود..

وكانت علامات الحدود المصطنعة مقامة كيفما اتفق، إذ لم يهتم أحد من الجانبين بتحديدها بدقة، ولكل منهما أسبابه الخاصة..

الجانب العربي كان يرى هذه الحدود شيئاً مؤقتاً، وأن الأراضي الفلسطينية لا تلبث أن تتحرر من نير الإحتلال

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

وتعـود، كما كـانت، وحدة متكـاملة كما كـانت منذ أقـدم الأزمان...

والجـانب الإسرائيلي كـان يتهيـأ للوثـوب على الضفـة الغربية تحقيقاً لمخططاتـه التوسعيـة العدوانيـة ويعد لجـولة جـديـدة، بعـد أن أخفقت جـولـة عـام ١٩٥٦ في تحقيق أغراضها، فكان يجد في تداخل الحدود، وعدم تحديدها، وسيلة للتسلل إلى الأراضي غيـر المحتلة، يضـرب هنـا، ويعتدي هناك، ويـوجه أعمـاله العدوانية حسبمـا وضع من مخططات توسعية...

ولقد أوجد هذا الوضع مجالاً للإتصال مـا بين الأرض المحتلة والأخرى غير المحتلة، وكان من أسهل الأمور على أي من المقيمين في هـذه المنطقـة أو تلك، أن يمر عبـر الحدود ـ التي يزيد طولها عن ستمائة كيلومتر ـ من غير أن يشعر به العدو...

ومع استمرار الـظلم الذي وقـع بالشعب الفلسـطيني، وانتشار فكرة «المقاومة» بمعناها الواسع في عقول المشردين بلا خطيئة، لا سيما الشباب منهم، بات الإتصال الخفي بين جزئي الأرض المغتصبة أكثر نشاطـاً، وأبعد أهـدافاً... إذ كان هناك شبه اتفاق بين أبناء الشعب الذي شطر إلى سكان ضفة شرقية وأخرى غربية، على ضرورة إشعار العدو بأن هذا الوضع لا يمكن أن يستمر، وأنه لا يجوز له ـ لهذا العدو ـ أن

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

ينام على حرير الطمأنينة لأن مؤامرته قد نجحت، وأن الأرض التي اغتصبها كانت لقمة سائغة استطاع أن يبتلغها بسهولة...

ومع أنه لم يكن هناك رابطة أو تنظيم معين بين أصحاب هذه الأفكار، إلا أنها، بحد ذاتها، كانت تجد تجاوباً تلقائياً فيما بينهم إذا ما تحدث أحدهم فيها...

كانوا يرون - ويشعرون - بأن عليهم، هم أنفسهم، أن يأخذوا قضيتهم على عواتقهم، وأن يهزوا كيان العدو، وأن يقولوا له بأنهم موجودون، لا كمخلوقات يائسة تعيش في المخيمات، وإنما كنفوس جياشة تستطيع أن تقاوم، أن تقاتل، أن تستشهد، أن تقدم القافلة تلو القافلة من الشهداء حتى يستعاد الوطن المغصوب أو يهلك الشعب كله...

وكانت لنمر، على ضآلة تعليمه، وقلة ثقافته، نظرية تستحق التأمل، كثيراً ما كان يرددها أمام أصدقائه في كل مجلس يرد فيه ذكر فلسطين...

كان يقول أن الإسرائيليين يدعون، بل ويباهون، بأنهم أكثر خبرة ومعرفة بالنفسية العربية، فكانوا يقولون للعالم «دعوا العرب لنا... نحن نعرف نفسياتهم... ونعرف كيف نتعامل معهم... أنهم لن يلبثوا أن يستسلموا للأمر الواقع الذي نفرضه نحن»...

وكان نمر يعلق على الرأي الفلسطيني هذا، بأنه لا

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

يجهل، ولا ينكر، أن الإسرائيليين يعتمدون كثيراً في تحركاتهم على البحث والدراسة والتخطيط والمعلومات، ولكنه يعتبر أنهم قد وقعوا في الخطأ الذي سيقضي عليهم يوماً ما، باعتقادهم أن الأمة العربية، والشعب الفلسطيني، يمكن أن يظلا على ما هما عليه إلى الأبد...

ويشرح نمر «نظريته» قائلاً:

ـ إن بين الإسرائيليين، ولا ريب، أساتذة كباراً، قد تخصصوا في التاريخ العربي والإسلامي، ودرسوا كل فتراته وتجاربه وأحداثه، ولو وعى هؤلاء دروس هذا التاريخ جيداً، لتبينوا ـ بكل بساطة ـ أن أمتنا يمكن أن تخلد إلى الضعف فترة قد تطول أو تقصر، ولكن لا بد، لا بد، وأن تعقب هذه الإغفاءة صحوة... وهذه الصحوة تكون عادة عاتية عارمة، ما يدري أحد متى تحدث، ولا كيف تحدث، ولا أين تحدث، ولكنها ـ دائماً ـ تحدث، وسوف تحدث بكل تأكيد، ولئن كان الإسرائيليون يحسبون أن ما نحن فيه الآن دائم إلى الأبد، فهذا ـ أقول وأعيد القول ـ هو الخطأ المميت الذي سوف يقتلهم في يوم من الأيام...

ولعل نمر قد أراد أن يقرن قوله بالفعل، حين انخرط في سلك جماعة فدائية صغيرة، عزمت على أن تنبه العدو إلى أن الفلسطينيين ما زالوا موجودين، وأنهم لم يموتوا، وأن جيل ما بعد النكبة هو أشد ضراوة في حقده وعزمه على الثأر

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

واستعادة الحق، من جيل النكبة نفسه، فهذا الجيل، وهو كله شبان في مقتبل العمر، قد فتح عيونه على المأساة وقد بلغت ذروتها، إذ ولد في خيمة، أو جحر من الإسمنت البارد، وتغذى باليسير الغث من الطعام الذي كانت تقدمه الوكالة، وسمع ممن هم أكبر منه سناً أهوال ما عانى شعبه منذ أن اتخذت المؤامرة على فلسطين مسارها العنيف الذي أدى إلى إجبار أكثر من مليون ونصف المليون من الأنفس على هجر أراضيهم وبلادهم بالقوة..

ولقد نقل نمر أفكاره هذه إلى ابراهيم، لتجد تجاوباً فورياً منه، وكأنما كان ابراهيم يفكر في نفس ما كان يفكر فيه نمر، وحين استمزحه نمر حول مدى استعداده للمشاركة في عمليات فدائية ضد العدو، أجاب ابراهيم بالموافقة من غير تردد، بل لقد بات يلح على نمر سائلاً عن موعد البدء بهذه العمليات، فكان نمر يستمهله، ويشير عليه بالتريث والإنتظار، لأن الأمور يجب أن تدرس، والمعلومات يجب أن تستكمل، والعمليات يجب ـ على ضوء ذلك ـ أن تنجح...

وكان من أسهل الأمور على نمر أن يتسلل إلى الأرض المحتلة عدة مرات، متنكراً في ملابس مزارع عربي، وأن يتصل بمن كان يعرفهم من الناس فيما حول القدس من القرى، وأن يحصل منهم على ما شاء من معلومات، فلقد كان العرب الذين ظلوا في أراضيهم يعيشون ـ وهم أصحاب

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

البلد والأرض ـ مواطنين من الدرجة الثالثة في الدولة الإسرائيلية، ذلك أن مواطني الدرجة الأولى ـ حسب التصنيف السائد في الأرض المحتلة ـ هم اليهود الأوربيون، ويليهم اليهود الشرقيون، الذين هم مواطنون من الدرجة الثانية، أما العرب فهم مواطنون من الدرجة الثالثة...

وكانت رغبة نمر أن تكون ضربته الأولى في بلدته «عين كارم» بالذات، إذ لم تكن تفارق خياله، طوال هذه السنوات، صورة الغاصبين وهم يحتلون بلدته التي أبيد معظم رجالها، وكان هو نفسه أحد القلائل الذين نجوا من تلك الإبادة...

وكان لخبرته التامة بالطرق والمسالك في المناطق الغربية من القدس، أثرها في سرعة استكماله لترتيباته، حين عبر الحدود عدة مرات إلى الأرض المحتلة، في مناطق غير محروسة من أي من الجانبين، وأعد خطته إعداداً محكماً، وكان هدفه محطة ضخمة، تمد عدداً من القرى والمستوطنات بالكهرباء...

وقبل أن يودع ابراهيم والدته ذلك الوداع الذي أثار ريبها وقلقها، كان قد اجتمع إلى نمر، الذي أبلغه بموعد تنفيذ العملية، وخطوطها الرئيسية، وزوده بالتعليمات الأولية التي يتوجب عليه أن يستوعبها، وأن يعمل بها، لكي يتما عمليهما بنجاح...

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

وكان فرح ابراهيم شديداً عندما أبلغه نمر أن «العلمية» سوف تتم قرب عين كارم، بلدته ومسقط رأسه، ووعده بأن يريه البلدة من أقرب نقطة ممكنة، علّه يتذكرها، ويتذكر سنواته القلائل الأولى فيها...

في اليوم المحدد، كان ابراهيم يركب إحدى سيارات «الباص» المتوجهة إلى القدس، وبجانبه يجلس نمر بكل هدوء، وكأنه يقوم برحلة عادية ما بين عمان والقدس، كما اعتاد الكثيرون أن يفعلوا، أما بالنسبة لابراهيم فكانت تلك أول مرة يتوجه فيها إلى القدس، بعد النكبة فكان كثير الاهتمام بما يرى خلال الطريق، محاولاً أن يعرف اسم كل بلدة، وكل قرية، وكل معلم، من المعالم التي يمرون بها، وكان نمر يجيبه على أسئلته متذكراً، مع كل جواب، شيئاً من الماضي الذي كان، والذي لا يزال يذكره بأدق تفاصيله...

ووصل بهم «الباص» أخيراً إلى القدس، بعد حوالي ثلاث ساعات، تخللتها وقفات عديدة، ما بين صعود ركاب ونزول آخرين...

وسار الرجلان إلى أحد المطاعم الشعبية الرخيصة، حيث تناولا شيئاً من الطعام، وطلبا بعد ذلك فنجانين من القهوة، وفي داخل ابراهيم أسئلة كان يود أن يلقيها على زميله، ولكن نظرة محذرة، صامتة، أرسلها نمر جعلت الشاب يمتنع على السؤال، وهو يتحرق شوقاً لمعرفة ما سوف

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

يحدث بعد ذلك . . .

وإذ انتهى الإثنان من احتساء القهوة، دفع نمر الحساب، ثم سار بابراهيم مخترقاً شوارع ضيقة، ذات أرض حجرية، وقد ساد صمت تام بينهما، حتى ليكاد الرائي إليهما يظن أنهما لا يعرفان بعضهما . . .

وفي حارة ضيقة من المدينة، توقف نمر أمام أحد المنازل، وقرع الباب ذا المطرقة الحديدية، ومضت دقيقة أو اثنتان قبل أن يفتح الباب ويظهر وراءه شاب يرتدي قميصاً مفتوح الصدر، وبنطالاً مجعداً يدل على أنه قد عاد تواً من عمله . .

ولم يكد الشاب ير القادمين حتى أفسح لهما الطريق من غير أن ينطق بكلمة واحدة وكأنه كان يتوقع قدومهما، ولم يكد يغلق الباب، حتى تكلم نمر أخيراً فقال للشاب وهو يصافحه :

ـ هذا هو ابراهيم . . الذي حدثتك عنه . .

ـ أهلاً وسهلاً . . .

رحب الشاب بابراهيم وهو يصافحه بقوة ويردف قائلاً :

ـ اسمي سليمان . . . ولست أدري ما إذا كان الأخ نمر قد حدثك عني . .

وابتسم ابراهيم وهو يجيب :

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

ـ إنه لم ينطق بكلمة واحدة منذ أن وصلنا إلى القدس..

وابتسم سليمان ولم يجب بشيء، وإنما تقدمهما إلى غرفة صغيرة تقع على يمين الداخل إلى فسحة واسعة، في المنزل، وفي وسط هذه الفسحة نافورة من الرخام، وحولها أنواع متعددة من نباتات الزينة التي وضعت في أوعية كبيرة...

وجلس ابراهيم ونمر على مقعد طويل في صدر الغرفة، بينما جذب سليمان كرسياً وجلس تجاههما، وقد اكتست ملامحه جدية مفاجئة تختلف عن المظهر المرح الذي استقبلهما به...

ومع أنه لم يكن معهم أحد في الغرفة، بل في المنزل، فإن الحديث قد دار بينهما بخفوت، وبعبارات قصيرة حاسمة..

ـ لقد أوصلنا «العفش» إلى المكان المقصود.. وسوف تجدون بطرس في انتظاركما، إنني لم أحدد له يوماً معيناً.. قلت له أنكما ستصلان خلال هذا الأسبوع..

ونهض سليمان إلى رف صغير، تناول منه مجلداً يضم أعداد إحدى المجلات القديمة، وتصفحه بسرعة، ثم تناول من بين صفحاته ورقة مطوية، نشرها أمام الإثنين، وراح يشرح الرسم الذي فيها:

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

ـ هذا هو طريق القدس ـ رام الله.. أنظر جيداً يا أخ نمر.. في هذه النقطة.. عند شجرة التين العجوز التي تعرفها.. هنا تستطيعان أن تخترقا الحدود دون أن يراكما أحد.. لا يوجد سوى دورية إسرائيلية تمر على شريط الحدود في هذه المنطقة.. إنها مؤلفة من سيارة جيب واحدة فيها أربعة جنود.. لقد راقبتها مدة طويلة، إنها تمر في حوالي الساعة العاشرة ليلاً.. والظلام يبدأ بالإنتشار منذ السابعة.. أي أن أمامكما ثلاث ساعات وهي كافية جداً للوصول إلى بيت بطرس...

وكان نمر يصغي بانتباه، ويهمهم همهمة الفهم والموافقة لأنه يعرف هذه الأمكنة كما يعرف كف يده... فلم يكن بحاجة إلى الاستفسار عن أي شيء...

وصمت سليمان بعد أن أفضى بما عنده، وتكلم نمر متسائلاً بطء:

ـ و «العفش»... هل.. هل هو كاف..

وضحك سليمان ضحكة هادئة وهو يقول:

ـ إنه كافٍ لنسف عشر محطات للكهرباء على الأقل.. اطمئن من هذه الناحية..

ـ والحراسة على المحطة؟..

ـ عادية جداً.. حارس واحد ليس غير.. يجلس في

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

«كشك» عند الباب.. والمحطة محاطة بسور عالٍ من الأسلاك.. ولا يوجد في داخلها سوى مهندس واحد..

والتفت نمر إلى ابراهيم وسأله وكأنه يسأل نداً:

ـ هل لديك أسئلة يا ابراهيم...

واحمر وجه ابراهيم، فهو ـ في الواقع ـ لم يكد يفهم سوى جانب يسير من الحوار الذي دار بين الإثنين، فقال بتردد:

ـ لا أعتقد.. أنا على كل حال تحت قيادتك.. افعل ما تكلفني به...

ـ سوف أشرح لك كل شيء أثناء الطريق..

وتدخل سليمان في الحديث متسائلاً:

ـ عفواً.. ولكن، هل الأخ ابراهيم مدرب على.. على مثل هذه الأشياء؟..

وقبل أن يجيب نمر، قال ابراهيم:

ـ من ناحية إطلاق النار.. واستخدام المسدس تستطيع أن تطمئن يا أخ سليمان... والأخ نمر يشهد لي.. أليس كذلك يا نمر؟...

فأجاب نمر باسماً:

ـ أجل.. إنني أشهد لك.. لقد تدرب جيداً على

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

إطلاق النار.. ولا خوف عليه من هذه الناحية..

وتنهد سليمان بارتياح، ثم خرج إلى الفسحة القائمة وسط المنزل، وأزاح إحدى الصفائح المزروعة بالنبات، وقلبها على جانبها، ثم سحب من أسفلها المفتوح لفافة من القماش، وضعها على الأرض ثم أعاد الصفيحة كما كانت، وعاد إلى الغرفة حاملاً اللفافة ثم وضعها أمامهما، وفك عقدتها، ثم فرد قماشها ليخرج منه مسدسين صغيرين ومعهما بضع علب من المعدن تحتويان على كمية من الرصاص...

* * *

عندما أرخى الظلام سدوله على المدينة، كان منظر القرويين الإثنين اللذين كانا يجدان السير إلى ظاهر البلدة، منظراً عادياً لم يستلفت انتباه أحد، حتى وهما يحملان سلتين من القصب، ويسيران في اتجاه الطريق الذي يصل ما بين القدس ورام الله..

ولو أن امرءاً نظر إليهما، لحسب أنهما من أولئك القرويين الذين يؤمون المدينة في النهار، ويغادرونها في الليل عائدين إلى قراهم، وأن الحديث الذي كان يبدو أنهما منهمكان فيه، لا يخرج عن أحاديث القرويين المعتادة في مثل هذه الأحوال، حول الأسعار، والمحصول، ومشكلات الزارعة والري، ومسائل الأقارب والأهل والأصدقاء...

ولكن مَخْبَر ذلكما القرويين، وهما من نعرف حق

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

المعرفة، كان مختلفاً تماماً عن مظهرهما..

كان نمر، بأعصابه الفولاذية التي علمته الأيام والتجارب كيف يسيطر عليها سيطرة تامة، يتحدث إلى ابراهيم حديث القائد إلى الجندي، كان يعيد عليه ـ للمرة العاشرة ربما ـ تفاصيل الخطة البسيطة التي هما الآن بسبيل تنفيذها، وكان يستخدم التعابير الغامضة، ذات الدلالة، في حديثه ذاك.. «فالعفش» هو المواد الناسفة التي سوف يزودهما بها زميلهم بطرس عندما يصلان إليه في بيته الواقع بعد شجرة التين التي تعتبر إحدى نقاط الحدود المصطنعة التي أقيمت بين شطري الأرض المغتصبة، و«الجماعة» هي دورية العدو التي اعتادت ـ كما قال سليمان ـ أن تذرع شريط الحدود ذهاباً وإياباً في كثير من التكاسل واللامبالاة، إذ كان كل شيء هادئاً على الحدود، وكان العدو مطمئناً إلى أن الشعب الذي طرده من أرضه غدراً وعدواناً قد استكان للأمر الواقع، لا سيما وأن الحوادث «التخريبية» كانت قليلة جداً ـ حتى ذلك الحين ـ بصورة لا تدعو إلى أي قلق..

وكان ابراهيم يصغي إلى كلام نمر بانتباه شديد، وهو يحاول أن يحفر كل كلمة يسمعها في ذاكرته، لكي يتصرف في الوقت المناسب وفق الخطة الموضوعة...

ولقد دهش ابراهيم، فيما بعد، كيف لم يفكر بأمه، ولا بمستقبل دراسته، ولا بأي شيء آخر، سوى هذه المهمة التي

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

يسيران إليها. . . ولم تكن تخامره ذرة واحدة من الخوف، بل لم يفكر على الإطلاق في النتيجة فيما لو فاجأتهم دورية الأعداء في غير موعدها المعتاد، كان قلقاً ـ فقط ـ أن يحدث شيء يتسبب في فشل العملية وإخفاقها، أما فيما عدا ذلك، فقد كان هذا الشاب كتلة من العزم والتصميم والإقدام. .

وانتبه ابراهيم من خواطره على صوت نمر وهو يقول له بصوته الخافت الواضح:

ـ إنني أعتبر هذه العملية بدائية جداً. . . بل وبسيطة وساذجة. . . إنها تختلف كثيراً عن العمليات الحقيقية التي أحلم بها. . محطة كهرباء؟. . ماذا تعني محطة الكهرباء؟. . لا شيء تقريباً. . إنهم لا يلبثون أن يصلحوها أن ينشئوا غيرها، أنا أعرف هذا سلفاً. . وأحلم بعمليات ضخمة. . . عمليات جبارة. . تهز الأعداء من أعماقهم. . وتؤذيهم في مواجعهم. . وتنشر أخبارها في المنطقة كلها. . . ولكن الوقت لم يحن بعد. . نحن الآن قلة. . ونحتاج ألى أشياء كثيرة. . إلى تنظيم. . . وإلى مال. . وإلى خطط. . وإلى تدريب. . وهذا كله سوف يحدث بإذن الله. . أما عمليتنا اليوم فهي مجرد دغدغة بسيطة للعدو، تقول له باللغة التي يفهمها: نحن هنا. .

ولم يعلق ابراهيم بشيء، فهذه الآراء هي نفسها ما كان يجول بخاطره، وقد كان يعتبر العملية البسيطة التي يتجهان

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

إليها الآن مجرد بداية.. أو تدريب علمي.. وأن في ذهنه مثل ما في ذهن نمر من أفكار حول «العمليات الجبارة» التي تنال من العدو حتى الصميم...

وبدت، أخيراً، شجرة التين العجوز بأغصانها الوارفة، وجذعها الضخم، فلمعت عينا نمر وقال بصوت خافت:

ـ هذه هي الشجرة.. من هنا نخترق ما يسمونه حدوداً بين هذه الأرض وشطرها المحتل...

وأجال نمر بصره فيما حوله، فلم ير ما يريب، فالظلام قد خيم تماماً على المكان، وشجرة التين تبدو كشبح أسود ذي ألف ذراع وذراع... ولا أثر لأي مخلوق، ولا وجود لأي صوت...

وبخطوة عريضة، كان نمر ينتقل إلى ما وراء الشجرة، ووراءه ابراهيم، فهمس نمر بلهجة مرحة:

ـ الآن دخلنا في الجد يـا صديقي.. أنت الآن على الأرض التي اغتصبت منك.. ومتى تقدمنا أكثر، أستطعت أن ترى بيتك وبيت أهلك في عين كارم بالعين المجردة...

وارتجف الشاب من قمة رأسه إلى أخمص قدميه وهو يستمع إلى كلام نمر، فها هو.. ها هو ابراهيم الذي خرج من هذه الأرض طفلاً صغيراً، مطروداً، مهجراً، نازحاً، لا يكاد يعرف عما كان يدور حوله شيئاً.. ها هو ابراهيم نفسه

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

يعود الآن شاباً قوياً، فتياً، قد عزم على أن يقول للعدو كلمات قلائل، وأن يفهمه بأنه ما زال حياً، لم يمت، وما زال أمل العودة يمور في قلبه الفتي كمثل بحر هائج . . .

وأحس ابراهيم وكأن الوشم الأزرق الذي رافقه منذ ذلك اليوم، قد بات جمراً متقداً، يلهب باطن ذراعه، ويهيب به أن يتقدم، وأن يضرب، وأن ينتقم . . .

وبعد ساعة أو بعض ساعة كان الرجلان يطرقان باب بيت «بطرس» ويختفيان داخله بسرعة، ومن غير أن يشعر بذلك أحد خارج البيت . . .

* * *

واستطاع ابراهيم أن يرى وجه بطرس على وجه المصباح الكهربائي اليدوي الذي أضاءه بعد أن أسدل الستائر على النوافذ، وجلس الثلاثة على أرض الغرفة وكان أغرب ما لاحظه ابراهيم أن مضيفهما ـ الذي كان في انتظارهما ـ يتصرف ويتحدث بصورة طبيعية ليس فيها أي أثر للخوف أو القلق . . .

وبعد أن قدم نمر زميله إلى بطرس، حدق هذا في الشاب محاولاً أن يستشف من ملامحه شيئاً، إذ بدا له أنه أصغر سناً من أن يقوم بمثل هذه المخاطرة، ولكن رباطة جأش ابراهيم، ومشاركته في الحديث بصورة تدل على أنه قد تدرب على مثل هذه الأعمال جعلت بطرس يشعر

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

بالإطمئنان إليه لدرجة أنه كان يوجه الحديث إليه وكأنه سيقوم وحده بالمهمة...

وقال بطرس بهدوء:

ـ الوقت مناسب تماماً.. وسيارة الدورية ستمر بعد دقائق باتجاه القدس... ولم يطرأ أي تغيير على نظام الحراسة في المحطة...

وسلط نور مصباحه اليدوي على الخارطة التي أخذها نمر من سليمان، وراح يعيد شرح نفس المعلومات عن الموقع.. والحراسة.. والمهندس الوحيد الموجود داخل المبنى، وأقصر الطرق إلى مكان العملية، وبعد أن اطمأن الجميع إلى أن كل شيء على ما يرام، أطفأ بطرس مصباحه وهو يقول بصوت خافت:

ـ العفش.. جاهز.. وهو مخبأ بعناية في سقيفة البيت... ستأخذانه بعد أن تمر سيارة الدورية...

ولم يكد يكمل جملته حتى سمع الثلاثة هدير محرك «الجيب» الذي تمتطيه الدورية، فقال بطرس بتحفز:

ـ ها هم.. إنهم لن يلبثوا أن يبتعدوا خلال دقائق...

وكان هدير السيارة يرتفع كلما اقتربت من المكان، وفي الوقت الذي كان الثلاثة ينتظرون فيه أن يخفت الهدير بابتعاد السيارة، كان الصوت يتصاعد بصورة تدب القلق في نفوسهم.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

وعبّر نمر عن هذا القلق بقوله وهو يتناول مسدسه من أسفل سلته:

ـ يبدو أنهم يقتربون من هنا...

ـ غير معقول..

قال بطرس ذلك وقفز نحو إحدى النوافذ وأزاح الستارة بحذر ثم التفت إلى زميليه قائلاً لهما بصوت متوتر:

ـ صدقت.. إن السيارة تتجه نحو هذا البيت...

وارتفع هدير المحرك أكثر فأكثر، وأضاء داخل البيت ـ من خلال الستائر ـ نور كشافات السيارة ثم لم يلبث المحرك أن توقف، وسمع صوت حركة، ثم صوت طرق على الباب...

وتناول ابراهيم مسدسه، هو الآخر، وهو يرتجف، فقد شعر بأن الموقف أقوى منه، وأنه وإن كان متحرقاً فعلاً للقاء بالعدو والاشتباك معه، فالأمر ليس بالبساطة التي كان يتصورها...

وهمس بطرس بصوت متعجل:

ـ لا تخافا.. تعاليا معي..

وجمع الرجال أشياءهم المبعثرة، وصعد ابراهيم، ومن ورائه نمر، إلى سقيفة المنزل، في الوقت الذي كان طرق الباب يتكرر بقوة أكثر...

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

وتوجه بطرس بهدوء تام إلى الباب ليفتحه وهو يقول بصوت مرتفع:

ـ من بالباب؟..

وهمس نمر لابراهيم بصوت خافت:

ـ امسك أعصابك يا ولدي.. وإياك أن تتصرف بشيء دون أن تراني فعلت مثله... أنظر إليّ وافعل مثلما أفعل...

وأومأ ابراهيم برأسه بالإيجاب، رغم علمه بأن الظلام يحول دون رؤية نمر لإيماءته، ولكن الموقف كان أقسى على الشاب من أن يجيب بالكلام. فهذه أول تجربة من نوعها بالنسبة له، وهو عازم على أن يخوضها حتى النهاية، حتى ولو انتابه الخوف وسرى دمه بارداً، بل مثلجاً، في عروقه...

وأصغى الإثنان، فسمعا كلاماً بالعبرية يتبادلة بطرس مع القادمين، ثم صوت حركة ذهاباً وإياباً، ثم ساد الصمت، وبعده عاد صوت الحركة مرة أخرى، ثم ارتفع صوت هدير محرك السيارة، وأضاءت كشافاتها المكان مرة أخرى، ثم انطلقت، وما لبث صوتها أن غاب تدريجياً حتى تلاشى...

وخيم على البيت صمت ثقيل...

وتساءل نمر في سرّه عما جرى، وهل اعتقل رجال

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

الدورية بطرس؟ . . ولماذا لم يقوموا بتفتيش البيت إذن كما هي العادة؟ . .

وهمس ابراهيم متسائلاً :

ـ أين بطرس؟ . .

وابتسم نمر في الظلام وهمس بلهجة مرحة :

ـ وما أدراني؟ . . علمي علمك . . إننا في سقيفة واحدة كما ترى . .

وصمت ابراهيم، إذ شعر بسخافة تساؤله . . .

ومرت بضع دقائق، والصمت يزداد ثقلاً ووطأة على البيت كله، وعاد ابراهيم يسأل هامساً :

ـ ألا نتبين ما جرى؟ . .

ـ قلت لك امسك أعصابك . . ولا تتحرك . .

وعاد الإثنان إلى الصمت، بينما أصبحت أعصابهما كالوتر المشدود، ويداهما على زنادي مسدسيهما، وهما يحدقان في مدخل السقيفة، كأنما يتوقعان أن يظهر منه أحد . . .

وشهق ابراهيم رغماً عنه، عندما رأى شبح رأس يرتفع من مدخل السقيفة، ولكنه ما لبث أن شعر بالإرتياح الشديد حينما سمع صوت بطرس يهمس :

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

ـ هيه.. كيف الحال..

وسأله نمر هامساً:

ـ ماذا هناك؟..

ـ لا شيء.. تستطيعان أن تهبطا...

وتنفس نمر وابراهيم الصعداء، وهبطا من السقيفة، وقال ابراهيم بسذاجة:

ـ ياه... لقد تصلبت أطرافي وكأنني قد مكثت في السقيفة ألف عام...

وضحك بطرس وهو يقول:

ـ هذا طبيعي... ليس هناك أقسى من الزمن عندما يمر ببطء وتثاقل...

وسأله نمر باهتمام:

ـ إنك لم تقل لنا.. ماذا هناك؟..

ـ لقد أجبتك.. لا شيء.. الجماعة كانوا يريدون ماء لسيارتهم فأعطيتهم ما يريدون... هذا هو كل شيء...

فقال ابراهيم معلقاً:

ـ لقد حسبت، بادىء الأمر، أنهم جاؤوا في أثرنا...

وبهدوء حاسم كحد السيف قال له بطرس:

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

ـ وهل تظن أنهم كانوا سيخرجون من هنا أحياء؟..
لقد كانوا أربعة.. وليس أيسر من التخلص منهم.. على كل حال دعونا منهم.. إنهم الآن في طريقهم إلى القدس.. وقد أصبح طريقنا إلى محطة الكهرباء آمناً...

قال هذا، وصعد بنشاط إلى السقيفة، ومكث فيها بضع دقائق، ثم نزل وهو يحمل كيساً متوسطاً من الخيش وضعه على الأرض أمام الرجلين، وراح يخرج ما فيه وهو يتكلم بلهجة مرحة:

ـ بضاعة من أحسن صنف.. عفش ممتاز.. نستطيع إذا أردنا أن ننسف بها مستعمرة اسرائيلية بمن فيها... لقد بذلنا جهداً عظيماً حتى تمكنا من الحصول عليها...

وأضاء مصباحه الكهربائي، وسلطه على «البضاعة»، فرأى ابراهيم كمية من «المتفجرات البلاستيكية»، وقد أعدت على شكل رزم، ومع إحدى هذه الرزم ساعة توقيت، وربطة من الأسلاك التي تستخدم في التفجير...

وأعاد نمر هذه الأشياء إلى الكيس، ثم نهض وحمله على كتفه، وقال لابراهيم باقتضاب:

ـ هيا بنا...

وتقدمهما بطرس نحو الباب، ثم قال قبل أن يفتحه:

ـ كم كان بودي لو أنني رافقتكما في هذه المهمة..

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

لولا أنكما لا حاجة لكما بي . . وإن وجودي هنا أكثر فائدة من الذهاب . . على أية حال . . هـذه مجرد دفعـة صغيرة . . . صغيرة جداً على الحساب . . . ندفعها الليلة للعدو، لقاء ما سلّفنا من العدوان والغدر والتهجير . . . وإنني لعلى ثقة بأن يوماً ما، قريباً أو بعيداً، سوف يأتي فيشارك شعبنا كله في الكفـاح . . . من داخـل الأرض المحتلة وخـارجهـا على السواء . . .

وعانق بطرس زميليه وهو يقول بصوت مختنق من التأثر :

ـ الله معكمـا . . إنني بانتـظار صوت المـوسيقى التي ستعزفانها . . لن يغمض لي جفن قبل أن أسمعه . .

وخرج الإثنان، ونمـر يحمل الكيس وعـادا يجدان في السير نحو المحطة التي تمد تلك المنطقة بالكهرباء، والتي إنما جاءا من أجلها، ولكي يحيلاها أثراً بعد عين أو يموتا دون ذلك . . .

وبعد مسيرة حـوالي الساعـة، بدت المحـطة في عتمة الليل، وقد ارتفعت مداخنها الشاهقة التي كان ينبعث منها صفيـر متواصـل طرب لـه نمر، فهـو كفيل بـإخفاء صـوت تحـركهمـا، وكـذا صـوت رصـاصهمـا إذا مـا اضـطرا إلى ذلك . . .

وأقعى نمر على الأرض وهو يجذب ابراهيم نحوه، وقال له :

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

ـ هـل ترى تلك البيـوت المضاءة؟... إنهـا أرضك وأرضي وأرض أبناء بلدتنا عين كارم...

ونظر ابراهيم، وشعر بالـدماء تغلي في عـروقه، فلقـد تخيـل أن وراء تلك الأبواب المغلقـة، وتحت تلك الأنوار المضاءة قوماً يعيشون سعداء في أرض ليست لهم، وبيوت لا تخصهم، بينما يعيش أبناء الأرض والبيـوت في المخيمات منذ عقدين من السنين...

وكأنما كان نمر يقرأ أفكاره، فقد قال بهدوء:

ـ انظر حولك.. كل هذه القرى ببيوتها المضاءة، وحياة الدعة والإطمئنان التي تبدو عليها.. كلها قد اغتصبت منا.. بعد أن هجّرونا بالقوة.. وبالتآمر...

ولم يـطل تـوقف الإثنين، فـأمـامهمـا مهمـة يجب أن ينجـزاها، فعـادا للنهوض، وواصـلا السير بخفـة وسرعـة، وصوت هديـر محركـات محطة الكهـرباء يـزداد في أذنيهما ارتفاعاً وهما يقتربان منها إلى أن أصبحا على مقربـة بضع عشرات من الأمتار منها...

كانت المحطة مسوّرة بشبكة من الأسلاك المرتفعة، وقد قـام في مدخلهـا «كشـك» صغيـر، يبـدو في داخله ضـوء قوي...

وهمس نمـر بتعليمـاتـه الأخيـرة لإبـراهيم، ثم انـطلق

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

وحده، ومسدسه في يده، وابراهيم واجف القلب...

ووصل نمر إلى الكشك، وأطل من نافذته الصغيرة، فرأى الحارس جالساً يغالب النوم وهو يقرأ جريدة، وأجال نمر عينيه في أرجاء المكان حتى إذا اطمأن إلى عدم وجود أشخاص آخرين، سار بكل هدوء إلى باب «الكشك» ثم...

ثم وقع الحدث بسرعة يصعب على النظر أن يتابعها...

في ثوانٍ كان كل شيء قد انتهى..

فقد فتح نمر الباب فجأة، فرفع الحارس الإسرائيلي رأسه، ونظر إليه في رعب، وقد شلّت المفاجأة حركته، وقبل أن يفيق من ذهوله، كانت رصاصة نمر تنطلق من مسدسه المزود بكاتم للصوت، فانكفأ الحارس على وجهه في الحال، ومن غير أن تصدر عنه أنة واحدة...

وخرج نمر من الكشك، وأشار إلى ابراهيم الذي كان يراه بوضوح في النور الذي كان ينبعث من باب الكشك المفتوح، فحمل الكيس وجرى بكل قوته إلى أن أصبح عند الكشك، ورأى نمر وهو يفتح الباب الحديدي الكبير بمفتاح أخذه من غرفة الحارس، وتسلل الإثنان من ثم إلى الداخل وراحا يعملان بسرعة...

وخلال أقل من ربع ساعة كان الإثنان قد وضعا المواد

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

الناسفة في المواقع التي سبق تحديدها على الخارطة، وضبط نمر ساعة التوقيت بحيث يتم الانفجار بعد ساعة. . .

ثم التقى الإثنان، واتجها إلى الباب ليمرقا منه في مثل سرعة البرق، ثم ليطلقا ساقيهما للريح دون توقف. . .

وكان ابراهيم وهو يجري، يشعر وكأن قواه كلها قد تجمعت في ساقيه، فهو لا يكاد يصدق ما حدث. . ولا يكاد يتصور أنه شارك في عملية فدائية بهذه الطريقة التي تبدو وكأنها مشهد من أحد الأفلام السينمائية التي تعتمد على المبالغة والإثارة. .

وكان نمر يطلب إليه أن يواصل الجري، وألا ينظر وراءه أبداً، وهما يتجهان نحو شريط «الحدود» من أقرب نقطة، وفي اللحظة التي وضعا فيها أقدامهما على الجانب غير المحتل من الأرض، ومضت في السماء ومضة هائلة من النور، أعقبتها سلسلة متتابعة من الإنفجارات، ثم ساد الظلام المنطقة كلها، وصرخ ابراهيم بفرح جنوني وهو ما يزال يجري:

ـ الله أكبر. . لقد نجحنا. . لقد نجحنا. . .

وفي ذلك البيت الصغير القائم قرب شجرة التين العجوز، كان بطرس مستلقياً في فراشه مفتوح العينين، وهو يصيخ الصمت بقلق وانفعال، وحين تناهى إليه صوت

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

الإنفجارات تنهد بارتياح، واستدار على جنبه، واستغرق في نوم عميق...

* * *

لم يكن ممكناً أن يخطر ببال أحد، أن هذا الكهل والشاب الذي يرافقه، قد كان لهما أدنى علاقة بالحادث الذي وقع على مقربة من القدس، والذي أحال محطة الكهرباء الضخمة أثراً بعد عين..

كان الإثنان يركبان الباص، بعد أن باتا ليلتهما في منزل سليمان، فاستعادا ثيابهما العادية، وأعادا له السلاح والملابس القروية، ثم خرجا في ساعة مبكرة من اليوم التالي ليستقلا الباص المتجه إلى عمان...

ولم يتدخل الإثنان، قط، في الحديث الذي كان يدور على ألسنة الركاب حول الحادث الذي وصلت أنباؤه بسرعة إلى القدس، والذي هزّ السلطات الإسرائيلية على ما يبدو، إذ شوهدت سياراتهم المصفحة والناقلة للجنود وهي تتحرك هنا وهناك على طول الحدود الفاصلة ما بين المنطقة المحتلة والمنطقة الأخرى، وكان واضحاً أن العدو قد فوجىء بهذا الحادث تماماً، فجن جنونه، وراح يعيد النظر في أساليبه التي يتبعها في حراسة الحدود التي اصطنعها ـ هو نفسه ـ بمثل هذه الأساليب...

وكان نمر يشعر، بارتياح شديد، فقد حقق شيئاً مما كان

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

يدور في ذهنه، فخرج بذلك ـ كما قال لنفسه ـ من حيز الأقوال إلى حيز الأفعال. . . ومع أن من المؤكد أن العدو لن يسكت على هذه الضربة التي أصابته على غير توقع، إلا أن المهم ـ في رأي نمر ـ أن شيئاً ما قد حدث، وأن الإطمئنان الذي عاشه الغاصبون في أرض ليست لهم، وفي بيوت اغتصبوها من أصحابها، يجب أن يوضع له حد، وأن يقال لهم أن الشعب الذي شرّدوه بلا ذنب ولا خطيئة ما زال موجوداً، وأنه سيظل كابوساً يجثم على صدورهم، فيروعهم في يقظتهم ومنامهم، ويحيل حياتهم إلى مثل الحياة التي فرضوها على الشعب الفلسطيني. . .

أما ابراهيم، فكان ينظر ساهماً من نافذة «الباص» وهو يطوي الأرض متجهاً إلى عمان، ويستعيد في ذهنه أحداث اليومين الماضيين ساعة فساعة، بل دقيقة بدقيقة، فيحس أن متغيرات عميقة قد حدثت في شخصيته وتفكيره، فمع أنه أحس بالخوف، وكاد أن يرى «الموت» رأي العين، إلا أنه على استعداد لأن يعيد ما فعله مرة أخرى، وباتقان أكثر، وشجاعة أكبر. . . وكانت النشوة تجتاح كيانه كلما تذكر منظر الانفجار الهائل، ثم الظلام التام الذي خيم على المنطقة، نتيجة لانقطاع التيار الكهربائي، وراح يتخيل، بلذة وحشية، كيف تصرف الغاصبون عندها، وبم كانوا يشعرون وهم يتساءلون عما جرى. . .

وأدار ابراهيم وجهه ببطء، ناظراً إلى نمر، فرأى هذا

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

ينظر إليه مثل نظرته، وتلاعبت ابتسامتان على شفاههما، كانت هي الحديث الوخيد الذي دار بينهما منذ أن ركبا «الباص» في القدس، وإلى أن وصلا ـ أخيراً ـ إلى عمان . . .

* * *

عندما وقع نظر أم ابراهيم على ولدها، وهو يدخل المسكن، اتسعت عيناها دهشة، وخوفاً، فلقد هالتها تلك النظرة القاسية التي تطل من عينيه، وكأنه أسد قد انتهى لتوه من التهام فريسته، فبرقت عيناه بذلك البريق الوحشي الذي يدب الذعر في نفس رائيه . . .

وقف ابراهيم أمامها صامتاً، بعد أن ألقى عليها السلام، وكأنه ينتظر منها أن تبادره هي بالكلام . . .

وهتفت المرأة بعد أن زال عنها روع المفاجأة:

ـ ابراهيم . . ولدي . . الحمد لله على السلامة . . .

وأقبلت عليه تعانقه بشوق، فبادلها عناقها، وشدّد الضغط على ذراعيها وكأنه لا يصدق أنه يراها أمامه . . ثم تقدم بضع خطوات، وجلس على الأرض، وأسند ظهره إلى الجدار، ومدّ إحدى ساقيه، وألقى برأسه إلى الوراء وكأنه يريد أن يستريح من تعب عظيم . . .

وقالت الأم بقلب واجف:

ـ ماذا بك يا ولدي . . هل حدث شيء . .

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

وهز ابراهيم رأسه نفياً بحركة خفيفة، فاقتربت الأم منه، وجلست إلى جانبه وقالت له بلهفة شديدة:

ـ أين كنت؟..

ولم يجب الشاب..

ـ أقول لك.. أين كنت؟..

وظل الشاب على صمته..

ـ هل ذهبت إلى القدس؟..

ولم ينبس الابن بكلمة واحدة..

ـ ابراهيم.. لا تفقدني عقلي.. سأخرج إلى الساحة وأظل أصرخ وأولول حتى أموت إذا لم تتكلم..

وأدار نحوها عينيه المتعبتين وراح ينظر إليها ثم تكلم:

ـ ليس هناك شيء.. كله خير والحمد لله... ذهبت إلى القدس..

ونظرت إليه في لهفة تنتظر بقية حديثه، ولكن الشاب عاد إلى الصمت..

ـ ابراهيم.. تكلم.. إنك توشك أن تقتلني..

ودبت الحياة فجأة في الجسد المتعب، واعتدل في جلسته، وأمسك بيدي والدته بكلتا يديه وراح يتكلم بحماسة:

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

ـ اسمعي يا أماه.. ليس عندي الآن وقت للدراسة..

ـ وما شأن الدراسة فيما نحن فيه؟.. إنني أسألك عما فعلت في القدس..

ـ أتريدين أن تعلمي حقاً؟..

ـ ماذا أريد إذن غير ذلك؟..

ـ اعلمي إذن أنني كنت.. كنت في عين كارم...

وصعقت المرأة أو كادت، وقالت بصوت مختنق:

ـ عين.. كارم.. ولكنها..

ـ محتلة.. أليس هذا ما تريدين أن تقوليه؟.. أجل محتلة.. ومع ذلك فقد ذهبت إليها... ورأيتها...

ووضعت الأم رأسها بين كفيها، وكأنها تريد أن تمنعه من الانفجار..

واستطرد الابن يقول بانفعال:

ـ ذهبت مع أحد الأشخاص.. لن أقول لك اسمه.. ذهبنا لنسمع العدو صوتنا... وأننا لن نتخلى عن هدف العودة إلى أرضنا.. وأننا لن نتركه يهنأ فيها... هل سمعتني يا أماه؟..

وزادت الأم ضغطها على رأسها بكفيها، وقد تحجرت عيناها في ذهول شديد، وفتحت فمها عدة مرات، تحاول أن

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

تتكلم، ولكن الكلام احتبس في حلقها، فما لبثت أن أغمضت عينيها، وتداعت متهاوية على الأرض في إغماءة...

* * *

قال نمر بصوت خافت وهو يجلس على الأرض في حوش مسكن ابراهيم وأمه:

ـ هل قلت لها شيئاً؟...

ـ تقريباً.. لم أقل لها التفاصيل وإنما ذكرت لها أنني ذهبت إلى عين كارم، وأنني رأيتها... وألمحت إلى الغاية من الذهاب إلى هناك.. وأظنها فهمت مدلولة... فلم تجب بشيء وإنما غابت عن وعيها.. وحين مسحت وجهها بالماء البارد أفاقت، ولكنها ظلت على صمتها... واتجهت إلى فراشها واستغرقت في النوم دون أن تخاطبني بكلمة واحدة...

ـ هذا طبيعي.. كنت أتوقعه...

ـ يؤلمني جداً أن تغضب أمي مني.. أو أن يخيب أملها فيّ من ناحية الدراسة.. ولكن ماذا أفعل؟... لقد سرت في هذا الطريق لأنني وجدت فيه شفاء من القلق الدائم الذي كنت أعيش فيه...

ـ مهما يكن من الأمر أرى أن تنتسب للجامعة، وأن

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

تحقق أمل والدتك فيك . . .

ـ والواجب؟ . .

ـ تستطيع أن تساهم في بعض العمليات بين الحين والآخر . . فنحن، حتى الآن، ما زلنا نفتقر إلى تنظيم يجمعنا . . .

ـ فكرة معقولة . . .

ـ يمكنك أن تنتسب إلى أية كلية من الكليات وبهذا تطمئن الوالدة أولاً، وتعمل على ضمان مستقبلك أيضاً . . فلا تنس أن عدونا إنما تغلب علينا بالعلم بعد الغدر . .

ـ أليست هناك عمليات جديدة؟ . .

ـ حالياً لا . . لقد جن جنون العدو من حادثة نسف محطة الكهرباء . . لقد اعترفت بها كل الصحف العبرية التي صدرت في اليوم التالي . . وإن كانت قد نسبتها إلى الحجة التقليدية وهي حدوث تماس كهربائي . . . ولكنك تلمس بين سطور ما نشر عن الحادث غضباً وحقداً عظيمين . . وطبيعي أن السلطات الأمنية الإسرائيلية تعرف سبب الحادث . . ولهذا فهي سوف تضاعف من إجراءاتها . . . لقد وفقنا في العملية دون أية خسائر بسبب عنصر المفاجأة . . . ولذا فعلينا أن نخلد إلى السكينة بضعة أسابيع ندرس خلالها عملية أخرى دراسة وافية . . .

* * *

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

في اليوم التالي لم تذهب أم ابراهيم إلى عملها عند مختار أفندي، فقد هزّتها أنباء الأمس وهدّت قواها حتى أحست بالمرض يتسلل إلى جسمها، وزاد قلقها عندما نادت على ابراهيم عدة مرات فلم يجبها مما دلها على أنه غادر المسكن. وراحت الهواجس تفترس أفكارها إذ خشيت أن يكون قد ذهب مرة أخرى في عملية مماثلة... وحارت كيف تستطيع البحث عنه، والعثور عليه، ولكنها لم تلبث أن شعرت باطمئنان غامر، حين رأته يعود إلى المسكن حاملاً تحت ابطه ملفاً...

وجلس إلى جانبها بعد أن قبل جبينها، وتمنى لها أن تكون أحسن حالاً، ثم سلمها الملف وهو يقول باسماً:

ـ هأنا، يا ستي، أحقق مطلبك... لقد انتسبت اليوم إلى الجامعة، وقدمت أوراقي وآمل أن أبلغ بالقبول... لقد اخترت كلية الحقوق.. هل يلائمك هذا؟...

ـ الحمد لله.. الحمد لله يا ولدي على أنْ هداك.. إنك لا تدري كم آلمني ما حدثتني عنه بالأمس، لقد وجدت أن الآمال التي بنيتها عليك قد انهارت كلها، فضلاً عن أن الطريق الذي سرت فيه يجعلني أموت كل يوم ألف مرة قلقاً عليك كلما ذهبت في مثل هذه الرحلة...

ـ اطمئني يا أماه... سوف أقوم بواجبي نحوك ونحو وطني ونحو نفسي في آن واحد.. المهم ألا تشغلي بالك

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

من هذه الناحية أبداً...

ثم استطرد وكأنه تذكر شيئاً كان قد نسيه:

ـ بالمناسبة.. لقد عرضت عليّ الوكالة أن أعمل مدرساً عندها.. والراتب جيد جداً.. إنه أعلى من الرواتب التي تدفعها الحكومة... وقد أجبت بالقبول...

ـ ولكنني كنت أفضل أن تنصرف إلى دراستك وحدها...

ـ لن تعيقني الجامعة عن العمل... لأنني لا أريدك أن تعملي بعد الآن لا عند مختار أفندي ولا عند غيره...

ـ كما تشاء يا ولدي...

* * *

ومرت سنوات أخرى، كانت أمور سكان المخيمات خلالها كما هي، لم تتحسن، إن لم تزد سوءاً، فقد بدأت تظهر من قبل «الوكالة» نغمة ضعف الميزانية، ونقص الأموال، وتزايد المصروفات، مما أدى تلقائياً إلى تخفيض المخصصات الهزيلة التي كانت تعطى للاجئين، وأبدلت الوكالة اسمها من «وكالة إغاثة اللاجئين الفلسطينيين» إلى «وكالة غوث وتشغيل اللاجئين الفلسطينيين»، فقد أفتى بعضهم بأن كلمة «إغاثة» غير صحيحة من الناحية اللغوية وأن الكلمة الصحيحة هي «الغوث» كأن الذين قضوا سبع عشرة

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

سنة، حتى الآن، في المخيمات، لا همّ لهم إلا «تصحيح» اسم الوكالة الدولية، مع أن المهم هو «تصحيح» الوضع البائس الذين يعيشون فيه، بتنفيذ القرارات الكثيرة التي اتخذتها الأمم المتحدة ومجلس الأمن، بإعادة أهل فلسطين إلى أرضهم وبلادهم، ورد أموالهم وأملاكهم المغتصبة إليهم...

* * *

عام ١٩٦٧ م...

عام الحدث المروّع الذي وقع في الخامس من حزيران، والذي أدى إلى استيلاء العدو على فلسطين بأكملها، وعلى صحراء سيناء حتى الضفة الشرقية للقنال، وعلى مرتفعات الجولان السورية...

كان وقع الحدث على الأمة العربية كمثل وقع الصاعقة المميتة، بدأ فجأة، وانتهى فجأة، وكانت نتيجته بضع مئات أخرى من آلاف اللاجئين الذين هُجّروا من الضفة الغربية بنفس الأسلوب الذي هجروا به قبلاً من مختلف أراضي فلسطين...

واستقبلت المخيمات لاجئين جدداً، وأقيمت مخيمات جديدة، وتصاعد اليأس في دنيا العرب بصورة قضت على الآمال التي ظلت تساور اللاجئين الأوائل بالعودة... وهكذا تضاعفت المشكلة وتفاقمت، وباتت الغالبية العظمى من أهل

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

فلسطين خارج بلدهم، في الوقت الذي كان الأمل فيه ـ مع بداية أحداث حزيران عام ١٩٦٧ م ـ يتصاعد في أن تكون تلك الحرب بداية النهاية لتشرد المشردين، ونزوح اللاجئين، وأن تكون هي العودة الموعودة التي طالما ارتقبها اللاجئون سبع عشرة سنة متواصلة...

لقد بلغت الغطرسة الإسرائيلية وقتها قمة وقاحتها وتبجحها، وبدت إسرائيل في نظر العالم وكأنها الدولة التي لا تقهر، ونسجت الدعايات الصهيونية حول الجندي الإسرائيلي أكاذيب من الأساطير صوّرته وكأنه الجندي الذي لا يغلب... مع أن واقع الأمور كان ـ ويا للأسف ـ أنه لم تقع حرب أصلاً حتى يقال أن الجندي الإسرائيلي لا يقهر... وكل الذي جرى ليس أكثر من سوء تصرف، وسوء قيادة، وسوء تقدير، أدت ـ مجتمعة ـ إلى تلك النتيجة الفاجعة...

وفي وسط الظلام الدامس الذي لف الأمة العربية كلها إثر فاجعة حزيران، بدا بصيص من نور، استقطب اهتمام العرب جميعاً... فلقد ظهر «الفدائيون الفلسطينيون» كقوة جريئة لا تعترف باليأس، ولا تقبل الهزيمة، وتحاول أن تثبت أن الروح ما زالت تدب في جسد الأمة العربية، وأن فيها رجالاً قد عاهدوا الله ثم شعوبهم على أن يواصلوا القتال بأية صورة، وفي أي مكان، وبأي سلاح...

وصارت أخبار الفدائيين الفلسطينيين تحتل الصفحات

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

الأولى من الصحف العربية كلها، وصارت أنباء عملياتهم الجريئة داخل الأراضي المحتلة تهز مشاعر الإعتزاز والفخر في نفوس العرب... وبدا وكأن هذه الظاهرة هي عنوان رفض الاستسلام لليأس، والإخلاد إلى السكينة...

وباتت العمليات الفدائية داخل الأرض المحتلة، مصدر إزعاج فعلي للسلطات الإسرائيلية، هزّت كثيراً من صورة انتصارها المزعوم في حزيران ١٩٦٧ م وجعلتها تدبر عملية إرهابية تهدف إلى القضاء على معسكرات الفدائيين التي كانت من قبل مجرد مخيمات...

وبطبيعة الحال، كان لنمر وابراهيم نصيب في بعض تلك العمليات، وبما يتناسب مع ظروف وإمكانات كل منهما...

* * *

كان مخيم «الكرامة» ـ الذي أخذ اسمه من اسم القرية التي يقوم فيها ـ هو أحد المخيمات الكثيرة التي أفرزتها كارثة النزوح، والذي أقام فيه عدد من أبناء النكبة، في الخيام والمساكن المقامة كيفما اتفق، يعانون حر الصيف وبرد الشتاء، ويعيشون كما عاشوا منذ بداية أحداث عام ١٩٤٨ المروّعة... فلقد مرت السنون تلو السنين... وكل شيء باقٍ على حاله، والعودة الموعودة قد باتت أبعد من أن يطاولها حتى خيال مجنّح...

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

ومع ظهور النشاط الفدائي، وبروز منظمات فدائية فلسطينية، وازدياد عملياتها داخل الأراضي المحتلة، رأى العدو ـ كعادته ـ أن يوجه ضربة صاعقة إلى أقرب هذه المخيمات إلى حدود الأرض المحتلة الجديدة، فكان أن اختار مخيم «الكرامة» بالذات ليوجه ضربته تلك...

وكان أشد ما يغيظ العدو، أنه لم يكن يستطيع تمييز «الفدائي» من «المزارع» في مخيم الكرامة، فالجميع يرتدون ملابسهم العادية التقليدية، وكان مقصوداً من قبل الفلسطينيين، إذ كانت «حركتهم»، في بداية نشاطها، ومعظم أعمالها سرية، فكان «المزارع» الذي يرى وهو يحرث الأرض ويزرعها، ويجمع محصولها، هو نفسه «الفدائي» الذي يحمل السلاح، والمواد المتفجرة، ويتسلل إلى عمق الأراضي المحتلة، ليقول للعدو كلمة تكون أحياناً على شكل عبوة ناسفة في أماكن تجمع اليهود، أو صاروخ على مصنع، أو قنبلة على مستوطنة اسرائيلية... وهكذا...

ومع أوائل شهر آذار (مارس) من عام ١٩٦٨ م، أي بعد بضعة أشهر من كارثة حزيران، سرت في صفوف الفلسطينيين، في جميع المخيمات القائمة في الأردن، رسالة خفية...

ـ «العدو يحضر ضربة صاعقة لمخيم الكرامة»...

كان مبعوثو رجال مخيم الكرامة، ينقلون هذه الرسالة

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

إلى مختلف المخيمات الأخرى، وتكون نتيجتها، اتجاه جماعي من الشباب، والقادرين على جمل السلاح، نحو مخيم الكرامة، يتركون معه أعمالهم ودراستهم، وأهلهم، وعيالهم، ويذهبون إلى مكان المعركة المرتقبة...

وحمل نمر إلى ابراهيم الرسالة ذاتها، في همس سريع، واستيقظت في ابراهيم روح القتال والمواجهة مع العدو، فأبدى رغبته في التوجه إلى مخيم الكرامة في الحال...

وإذ همّ بالنهوض من أرض «الحوش» إلى الغرفة الوحيدة في المسكن، حيث كانت أمه مشغولة بترقيع بعض ملابسها وملابس ولدها، رفع ابراهيم رأسه، فوجد الأم واقفة عند الباب، وقد أسندت إحدى يديها إليه، وراحت تحدق في الإثنين صامتة...

وبهت ابراهيم، وارتبك نمر...

وقالت الأم بصوت هادىء، ذهبت الأيام وذهب البؤس بكثير من قوته:

ـ فيم تتحدثان؟...

فأدار نمر وجهه متحاشياً أن تلتقي عيناه بعينيها، بينما اقترب منها ابراهيم وتناول يدها، وجذبها برفق قائلاً:

ـ تعالي يا أماه واجلسي...

واستجابت الأم... وقد حافظت نظراتها على ذلك

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

الجمود والسهوم اللذين رافقاها منذ أن غادرت بيتها وأرضها، وفقدت زوجها ورجلها . . .

وتبادل ابراهيم مع نمر نظرة سريعة، ثم تحدث الشاب بانفعال:

ـ أماه . . إنني لم أعتد على أن أخفي عليك شيئاً . . وأقول لك بصراحة أن الأخ نمر قد جاء يبلغني بأن اليهود يعدون عدواناً جديداً . . .

وقالت الأم بلهجة من اعتاد مثل هذه الأنباء:

ـ عدوان جديد؟ . . وهل بقي مكان لم يعتدوا عليه بعد؟ . .

وشعر نمر بالإرتياح، وبدا له أن إقناعها بالموافقة لن يكون عسيراً . . . فوجد الجرأة على أن يقول لها:

ـ يا خالة أم ابراهيم . . أنت تعلمين أن شعبنا قد نفض عنه غبار اليأس . . وأزاح مشاعر الذل والإستكانة . . وأنه قد نهض من كبوته . . . يريد أن يثبت حقه وأن يعلن للعالم صوته . . .

وهزت المرأة رأسها دون أن تتكلم . . .

واستطرد نمر:

ـ واليوم، تناهى إلينا نبأ موثوق بأن العدو يحضّر لضربة عسكرية قوية يريد توجيهها إلى مخيم «الكرامة» ظناً منه بأنه

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

منطلق قوات الفدائيين الذين طالما قاموا بعملياتهم الجريئة داخل الأراضي المحتلة...

وعلقت المرأة ببطء:

ـ تعني أنه يريد أن يكتم لنا هذا الصوت الوحيد الذي ارتفع بعد سنوات البؤس واليأس؟..

ورد نمر بحماسة:

ـ هو ذاك يا خالة.. ولهذا ترينا نحشد قوانا.. ونجمع شبابنا ورجالنا كيلا يأخذنا العدو غدراً كما هي عادته...

وأطرقت المرأة صامتة.. وراح الإثنان يرقبانها بلهفة شديدة، كأنما هما ينتظران حكماً حاسماً يصدر منها، فإما موافقة وتأييد.. وإما رفض وإباء..

وطال إطراق المرأة وتفكيرها، ثم رفعت رأسها، ونظرت إلى نمر وسألته:

ـ وتريد أن تأخذ ابراهيم؟..

ـ إننا نحشد كل قوة ممكنة يا خالة..

وأدارت الأم عينيها نحو ولدها، وقالت له بصوت ثابت:

ـ وماذا تنتظر يا ولدي؟..

وذهل الإثنان، فما كانا يتوقعان منها هذا الجواب، وهي التي نذرت حياتها من أجل ولدها، والتي ظلت ترقب تقدمه

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

في دراسته الجامعية عاماً بعد عام، تنتظر اليوم الذي يحصل فيه على «الشهادة الكبيرة»، لكي يحقق أملها وهدف حياتها.. وها هي الآن تحث ولدها بنفسها على أن يذهب إلى المعركة المرتقبة، دون أن يرف لها جفن، أو يهتز لها صوت...

وقال نمر بتأثر:

ـ الله الله يا خالة أم ابراهيم... بمثلك نعتز، وببركة مثلك ننتصر.. إنني لأتذكر الآن تلك المرأة المسلمة العظيمة التي استشهد أولادها الأربعة فحمدت الله الذي أسبغ عليهم هذا الشرف ورجت أن يجمعها بهم في مستقر رحمته...

فقال ابراهيم معلقاً:

ـ تقصد الخنساء؟..

ـ أجل.. أجل.. إنها الخنساء...

وارتمى ابراهيم على والدته، يضمها إليه بقوة، ويقبل جبينها بحرارة، وتمسكت به الأم تتحس جسده وهو بين ذراعيها، وكأنما هي تودعه الوداع الأخير، أو كأنها تراه للمرة الأولى، شاباً في عنفوان الفتوة، ورجلاً في قمة الرجولة، ولعلها كانت تتساءل كيف نما هذا الجسد بعد أن كان غضاً، وكيف قوي هذا الابن وقد حملته جنيناً، وأرضعته وليداً،

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

وكان في نظرها، دائماً وأبداً، طفلها الحبيب الذي ضحت من أجله بكل شيء..

وشعرت بقطرات ساخنة من دموع ولدها تتساقط على خدها الملتصق بخده، فقطبت جبينها وقالت بلهجة حازمة:

ـ تبكي؟.. وهل يجوز للرجل أن يبكي؟.. إنك ذاهب إلى معركة.. والمقاتل لا يبكي يا ولدي..

وعاد ابراهيم يضمها إليه، وفي قلبه توجس مخيف، يخشى معه ألا يراها مرة أخرى، ولكنه وجد في شجاعتها ـ التي فاقت شجاعته ـ ما دب الحماسة في قلبه، فنهض ومعه نمر، وودعاها مرة أخرى، ثم غابا عن نظرها...

وظلت المرأة واقفة، بعد أن خرج الرجلان، ثم ذهبت مسرعة إلى فراشها وألقت بنفسها عليه، وهي تبكي وتبكي...

* * *

لئن كان العدو يفاخر دائماً بقوة «استخباراته» وغزارة معلوماته، فلعل من المؤكد أنه عندما دفع بقواته إلى «الكرامة» لم يكن يدري شيئاً عن حقيقة ما دبر له...

كان العدو قد خسر المعركة قبل أن يبدأها، بعد أن فقد عنصر المفاجأة ـ على غير علم منه ـ وكان يظنها مجرد نزهة يقوم بها غدراً، كتلك التي قام بها من قبل، منذ قيام الكيان

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

الإسرائيلي وحتى تلك اللحظة...

كان الغدر، والطعن في الظلام، والتسلل، والضربة المفاجئة، من السمات المميزة للأسلوب الإسرائيلي في القتال، وما عرف عن الإسرائيليين - إلا فيما ندر - أنهم قد مارسوا أسلوب المواجهة والقتال وجهاً لوجه...

ومع الخيوط الأولى للفجر، كانت بضع عشرات من الدبابات الإسرائيلية، ووراءها آلاف من جنود المشاة، تجتاز الجسور على نهر الأردن لتلتف حول مخيم الكرامة، وتنزل به ضربتها المقررة...

كانت الخطة الإسرائيلية تقضي - على ما يبدو - بإنزال قوة من المظليين عند سفوح جبال السلط، لتهاجم المخيم من الخلف، بينما تطبق القوات المدرعة والآلية عليه من الأمام..

وألقت الطائرات الإسرائيلية بأحمالها من المظليين في المكان المحدد.. ولكن أمر هؤلاء انتهى في اللحظة التي وطئت فيها أقدامهم الأرض...

لقد أبيدوا عن آخرهم، عندما فوجئوا بالنيران تنصب عليهم من كل جانب، لتحيلهم، في وقت قصير، إلى أشلاء مبعثرة، ولم ينج منهم أحد...

ومع اقتراب القوات المدرعة من المخيم، فوجئت بنيران

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

مـدفعية الجيش الأردني الثقيلة تنصب عليهم من الخـطوط الخلفية، فتدمر دباباتهم، وتمزق صفوفهم، وتحيل معركتهم إلى فوضى ما عادوا يستطيعون معها تقـدماً إلى الأمـام ولا تراجعاً إلى الخلف...

وهكذا دارت المعركـة، من الفجر إلى بعيـد العصر، ضارية، مريرة، التقى فيها الجانبان لأول مرة وجهاً لوجـه، منذ هزيمة حزيران، وكان اللقاء بين مقاتلي الشعب المشرد، ومقاتلي العدو الغاصب، لقاء دموياً بكل ما في الكلمة من معنى..

وانتشرت الدبابات المحطمة، والمجنزرات المحترقـة، والسيارات المهشمة إلى جـانب المئات من الجثث، وراح العدو يتراجع بغير انتظام، لدرجة جعلت بعض جنوده يلقون بأنفسهم في النهر ليجرفهم تياره القوي...

لقد كانت معركة «الكرامة» معركة كرامة حقاً...

ومن الثابت أن العدو لم يستطع أن يحقق فيها النجاح الـذي كان يتـوقعه، فـراح يجمع من يـراه في طـريقـه من «المزارعين» ليحملهم إلى خطوطه الخلفية لاستجوابهم في محـاولة لتحـديد حجم هـذه الظاهـرة الجديـدة.. ظـاهـرة «المقاومة الفلسطينية» التي بدت فتية شابة، في الوقت الذي كان يظن العدو معه أنه قد نفض يديه نهائياً من كل مقاومة عربية، بعد انتصاره الموهوم في حرب حزيران...

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

ومع انجلاء غبار المعركة، وانسحاب العدو من أرضها، راح المقاتلون المنتصرون يتفقدون ميدانها..

وكان أكثر ما أدهشهم، مشهد سائقي الدبابات وقد شدوا إلى مقاود دباباتهم بالسلاسل لمنعهم من الهرب، وحين أصابتهم نيران المدفعية الأردنية وصواريخ المقاومة، قتلوا في دباباتهم، واستحالت جثثهم إلى سواد متفحم...

وكان نمر يتنقل هنا وهناك باحثاً عن ابراهيم، فالهول الذي شهدته أرض «الكرامة» منذ الفجر إلى تلك الساعة، جعله يتصور أن من الصعب أن يكون ابراهيم قد نجا منه، لا سيما وأن ظروف المعركة قد اقتضت ابتعادهما عن بعضهما منذ أن وصلا إلى المخيم...

وراح نمر يحدق في الجثث المتناثرة، واجف القلب، وهو يدعو الله ألا يجد ابراهيم بين أصحابها، ويتنقل في أرجاء ميدان المعركة...

وما كان أشد سعادته حين سمع صوت ابراهيم يناديه على مبعدة، فقد كان ـ هو الآخر ـ يبحث عنه ـ ويحاول أن يطمئن عليه ـ ويدعو الله ألا يكون قد أصيب أو أسر في هذه المعركة الضارية..

وتعانق الرجلان بقوة، وقد تمزقت ملابسهما، وعلا الغبار وجهيهما...

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

وقال نمر بصوت متهدج:

ـ ابراهيم.. الحمد لله.. الحمد لله على نجاتك يا ولدي..

وعادا يتعانقان مرة أخرى في تأثر...

وكان على المقاتلين، بعد انتهاء المعركة، أن يعيدوا تنظيم صفوفهم، وأن يزيلوا آثار المعركة الضارية، وأن يتحسبوا لعملية أخرى قد يقوم بها العدو...

وسيق خمسة من الأسرى الإسرائيليين إلى إحدى المغارات القائمة في الجبل، تمهيداً لاستجوابهم والمساومة عليهم لاستعادة أسرى المقاتلين

* * *

كانت الروح المعنوية في مخيم الكرامة في أوج قوتها وارتفاعها، فهذه أول مواجهة حقيقية بين أصحاب الأرض الفلسطينية الشرعيين وغاصبيها المعتدين... كما أنها أول مواجهة تتم بين «المقاتل العربي» الذي أصيبت سمعته في الصميم إثر أحداث حزيران، والمقاتل الإسرائيلي الذي صوّرته الدعاية الإسرائيلية على أنه القوة القاهرة التي لا تغلب...

لقد بدا المقاتل الإسرائيلي، خلال هذه المعركة على حقيقته، فهو لا يحارب إلا من وراء دروع الدبابات، وتحت

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

مظلة جوية، وبدعم من قوة نارية كثيفة، إلى جانب الغدر والمباغتة...

ولقد عودته انتصاراته السهلة في الماضي على أن يستهين بالمقاتل العربي، غير منتبه إلى أنه إنما انتصر في الحرب الأولى بدعم من القوى العالمية التي سخرت مجلس الأمن لصالحه عندما كان إلى الهزيمة قاب قوسين أو أدنى، وفي الحرب الثانية كان محمياً بقوى دولتين كبيرتين، انجلترا وفرنسا، وفي الثالثة كان يدين إلى حالة التمزق المصطنعة التي سادت معظم أرجاء الوطن العربي، إلى جانب ظروف أخرى ليس بينها ـ ولا ريب ـ عجز المقاتل العربي، أو القدرة الأسطورة المزعومة للمقاتل الإسرائيلي...

لقد رأى الإسرائيليون في معركة الكرامة ما لا يمكن لإسرائيلي أن يفعله..

رأوا المقاتل الفلسطيني يحيط خصره بالحزام الناسف، ويلقي بنفسه تحت دبابات العدو لتدهسه، ولينفجر الحزام ويحيل دبابة العدو إلى أشلاء متناثرة...

ورأوه يقاتلهم بالسلاح الأبيض، وهو يدفع عن موقعه عدوانهم، ويحارب على امتداد جبهة طولها يزيد عن العشرين كيلومتراً...

كان المقاتلون وهم يخلدون إلى الراحة بعد عناء ذلك اليوم الطويل يتحدثون بذلك، وهم في نشوة الانتصار،

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

وعنفوان الظفر، ويستمدون مما حققوه من أمجاد عزيمة تجعلهم أشد قدرة ومضاء على مواجهة العدو في معارك مقبلة . . .

أما الأسرى، فقد كانوا في حالة من الهلع لا توصف، فهم قد نشأوا على الكراهية الشرسة، والحقد الأعمى، فحسبوا أن هذه هي السمة الطبيعية للمقاتلين، ولقد سبق لهم أن رأوا، ومارسوا بأنفسهم، أساليب التنكيل والتعذيب الوحشية فيمن يقع بين أيديهم من المقاتلين العرب، فتوقعوا أن يلقوا المصير نفسه، وأن يعاملهم آسروهم كما كانوا يعاملون، هم، أسراهم . . .

كانت المغارة التي سيق إليها الأسرى، تجويفاً طبيعياً عميقاً في قلب الجبل، قد أعده سكان المخيم ليكون صالحاً للسكن ووجدوا أنه أفضل مكان يضعون فيه أسراهم تلك الليلة، حتى يتم استجوابهم وتقرير مصيرهم في اليوم التالي . .

ولسبب ما، لعلنا نعرفه فيما بعد، عهد إلى ابراهيم بحراسة الأسرى تلك الليلة، فكان عليه أن يسهر على مراقبتهم، وسلاحه تحت يده، ومعه تعليمات واضحة وصريحة: أن يطلق النار بلا تردد على من يحاول الهرب منهم . . .

كانت المغارة مضاءة بمصابيح كهربائية قوية، تجعل

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

مراقبة الأسرى وحراستهم مهمة سهلة، فهم لا يستطيعون أن يأتوا بحركة واحدة دون أن يراهم..

ولم يكن يبدو على الأسرى أنهم يفكرون في الفرار بأية حال... فنظراتهم الزائغة، وقواهم الخائرة، وحالة الرعب الواضحة المرتسمة على وجوههم تدل على أن الهرب لم يكن وارداً في ذهن أي منهم...

ودخل ابراهيم المغارة، وأجال بصره في جنود العدو الذين التقى بهم، مقاتلاً وحارساً، لأول مرة في حياته ذلك اليوم...

كانت عيون الأسرى معلقة فيه، تنظر إليه في ذعر، كالشاة وهي تنظر إلى جزارها، وتتركز على الرشاش الخفيف الذي كان يحمله...

وأشار لهم ابراهيم أن بوسعهم أن يناموا، ودهش حين سمع أحدهم يقول له باللغة العربية بلهجة توسل:

ـ أرجوك.. لا تقتلنا.. إننا لسنا سوى جنود ننفذ الأوامر..

ونظر إليه ابراهيم بدهشة، فهو لم يكن يتوقع أن يجد بين هؤلاء الشباب من يتكلم العربية بتلك الطلاقة...

وابتسم ابراهيم بمرارة، ورد على الإسرائيلي الأسير:

ـ هل تحسبون أن الناس كلهم مثلكم؟... تستطيعون

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

أن تناموا بكل اطمئنان.. وثقوا أنني لن أنالكم بسوء...

ويبدو أن ذلك الجندي كان هو الوحيد الذي يتقن العربية بين رفاقه، إذ التفت إليهم، ونقل إليهم ما قاله ابراهيم بالعبرية، فبدا الإرتياح على وجوههم في الحال، وقال ابراهيم للجندي:

ـ الكلام ممنوع... قل هذا لزملائك.. ولا أريد أن أسمع بعد ذلك كلمة واحدة...

وخاطب الجندي زملاءه بما قاله ابراهيم، فهزوا رؤوسهم طائعين، ثم استلقوا وقد نال منهم التعب والخوف كل منال...

ونظر ابراهيم إلى ذلك الأسير، الذي وضع يديه تحت رأسه واستلقى على ظهره، وأحس بأن الأرض قد مادت به أو كادت...

بدا عليه ذهول عميق.. فراح يحدق في الجندي بقوة..

وفتح فمه يريد أن يتكلم، ولكن الكلمات احتبست في حلقه..

ولاحظ الجندي ذلك، وعاد الذعر يتملكه من جديد..

وتزايد ذعره حين أمسك ابراهيم رشاشه في حالة تهيوء، وهو يقول له:

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

ـ أنت... أرني ذراعك اليسرى.. ولا تتحرك من مكانك..

واستقام الجندي، ومد ذراعه اليسرى التي كانت ترتجف من الخوف..

وهمس ابراهيم بذهول:

ـ رباه.. هل هذا ممكن...

لقد رأى على ذراع الجندي الإسرائيلي الأسير وشماً، يمثل سمكة، هي صورة طبق الأصل من السمكة الموشومة على ذراعه...

وعاد يخاطب نفسه بذهول:

ـ رباه.. هل هذا ممكن...

واجتاحت كيانه هزّة عاتية... وأحس بطنين هائل، متصاعد، يوقر أذنيه حتى ليكاد يصاب بالصمم...

وشعر بمثل الدوار يأخذه، ويهزه من قمة الرأس إلى أخمص القدمين...

ورأى في مثل ومض البرق شريطاً مروّعاً من الذكريات يمر أمام عينيه:

طفلان صغيران، من عمرين متقاربين يتنزهان في ظاهر عين كارم...

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

الطفلان يجريان، ويلعبان، وقد تعالت ضحكاتهما...

إنهما يقفان أمام غدير صاف، تبدو من خلال مائه أسماك صغيرة تروح وتجيء في اطمئنان..

إنهما يحاولان اصطياد بعض تلك الأسماك بأيديهما... إلى أن يوفق كل منهما بواحدة..

أحدهما يشفق على السمكة وهي تنتفض في يديه بعد أن أخرجها من الماء، فيعيدها إليه..

ثانيهما يسحق السمكة بين أصبعيه بلذة وحشية حتى تبرز أحشاؤها...

غجرية تمر...

أحدهما يقترح على الآخر أن يسجلا صداقتهما الدائمة على ذراعيهما في صورة وشم متماثل...

الغجرية تنقش على ذراع كل منهما رسم سمكة صغيرة...

ثم...

أهوال النزوح.. يعانيها أحدهما مع أمه بعد أن فقد أباه...

من عين كارم إلى القدس...

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

من القدس إلى أريحا...

من أريحا إلى عمان...

من مغارة في أحد جبال عمان، إلى جحر في مخيم...

عشرون سنة كاملة مرت... ذاق فيها النازح كل ما يمكن أن يخطر على البال من الجوع.. والفقر.. والبرد.. والحر.. والضياع.. والآلام..

أمه عملت خادمة في بيوت الآخرين لتقيم أوده، وهي التي كانت سيدة بيتها ومزرعتها، ومن كرام السيدات في موطنها..

وهو.. الذي عانى كل ما عاناه، والذي كان أشده وأقساه ذلك الوشم الذي كان يحرق ذراعه كالجمر المتقد على أمل لقاء.. لقاء واحد ليس غير.. مع ذاك الذي سكن بيته، واستولى على ماله، واحتل مكانه.. وعاش وأراد للآخر ـ دوماً ـ أن يموت...

ثوانٍ معدودات ليس غير.. مر فيها هذا الشريط من الأحداث في خاطر ابراهيم وهو ينظر إلى الوشم المماثل لوشمه، على ذراع الأسير الإسرائيلي الأشعث الذي كان ينظر إليه في رعب لا يمكن تصويره أو تصوره...

وأخيراً تكلم ابراهيم، أو بالأصح حاول أن يتكلم في بادىء الأمر، ولكن الكلمات احتبست في حلقه، فهو لم

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

يكن ـ في واقع الأمر ـ يتصور أن من المحتمل، حقاً، أن يرى يوري بعد تلك السنوات الطوال... ولولا ذلك الوشم الذي رآه على ذراعه ما كان له أن يعرفه.. فلقد تركه وهما طفلان صغيران، وها هما الآن ـ كلاهما ـ في عنفوان الشباب..

وتنحنح ابراهيم عدة مرات، قبل أن يتكلم بثبات:

ـ هل عرفتني؟..

قالها بهدوء شديد، وهو ينظر إلى يوري بإمعان..

ونظر يوري إليه، ولم يبد عليه أنه قد عرفه...

وكرر ابراهيم سؤاله:

ـ هل عرفتني؟..

وأجاب يوري بصوت مرتجف:

ـ أنت منهم.. من الإرهابيين.. أقصد.. من المخربين.. أقصد.. من.. من العرب...

وأرخى جفنيه في خوف ثم استطرد:

ـ آسف.. إنهم يصفونكم هكذا عندنا.. في اسرائيل..

ـ إرهابيون.. مخربون؟.. هه.. ماذا أيضاً؟.. أترانا نحن الذين فتكنا بالأبرياء من سكان دير ياسين؟.. أم ترانا

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

نحن الذين ارتكبنا مذبحة قبية.. أم لعلنا نحن الذين طردنا أهل فلسطين من أرضهم وبلادهم واغتصبناها منهم جهاراً نهارا، ثم طاردناهم حتى في مخيمات البؤس والشظف التي يعيشون فيها؟...

ولم يجب يوري بشيء..

وقال ابراهيم:

ـ إنني أسألك هل عرفتني أنا؟.. أنا بالذات.. ألم يسبق لك أن رأيتني؟..

وتأمله يوري، ثم هز رأسه يميناً ويساراً بالنفي..

ـ قل لي إذن.. ما هذا الوشم الذي على ذراعك؟...

ـ إنه... إنه ذكرى قديمة.. قديمة جداً.. مرت عليها سنوات كثيرة...

ـ قديمة؟.. لعلك نسيتها...

ـ كانت عبث طفولة...

ـ آه.. عبث طفولة.. كان على صاحبك أن يدرك أنك تنظر إليها على أنها عبث طفولة.. بينما اعتبرها هو رمز صداقة دائمة مدى الحياة..

واتسعت عينا يوري دهشة وذهولاً وتساءل:

ـ وما.. وما أدراك؟..

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

وصرّ ابراهيم على أسنانه، وقال بأسف:

ـ يا لك من غبي.. أنظر..

وكشف ذراعه اليسرى بحركة سريعة من غير أن يترك رشاشه من يده الأخرى، وأدار باطن ذراعه نحو عدوه الأسير:

ـ أنظر.. وقل لي.. ماذا ترى؟..

وصعق يوري، فقد رأى على ذراع العربي الواقف أمامه وشماً يماثل الوشم الذي نقش على ذراعه، وعندها ـ عندها فقط على ما يبدو ـ بدأت الأمور تتضح أما عينيه، وصرخ بلهجة بدا فيها الفرح واضحاً:

ـ ابراهيم.. ابراهيم.. هذا غير معقول.. آه.. كم أنا سعيد برؤيتك...

وبدا على اليهودي وكأنه يهم بالنهوض ليعانق صديق طفولته، ولكن ابراهيم امسك رشاشه بحركة تهديد، وقال له بلهجة آمره:

ـ مكانك.. إياك أن تتحرك..

وجمد الإسرائيلي في مكانه، ولكن معالم السرور ظلت مرتسمة على وجهه، ولعله حسب أن صديق طفولته، ابراهيم، لن يحجم عن مساعدته وهو في حالته تلك...

وقال يوري بحماسة:

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

ـ أرأيت؟.. لقد كان اقتراحك إذ ذاك في محله.. لو لم ننقش هذا الوشم على ذراعينا لكان عسيراً علينا أن نعرف بعضنا الآن.. إنني سعيد.. سعيد بلقائك..

ـ ولم يا ترى؟..

ـ لم؟.. كيف.. ألسنا أصدقاء الطفولة...

ـ أصدقاء الطفولة؟.. ربما.. لأنني كنت إذ ذاك ساذجاً لا أفهم..

ـ ماذا تعني؟..

ـ إن ما أقصده واضح كل الوضوح.. إنني أرى الأشياء جيداً لأن يا ابن حاييم.. إن علاقتنا.. أنا وأنت.. وعلاقة أبي بأبيك.. وعلاقة بلدتنا «عين كارم»، بجاراتها الإسرائيلية المسماة «بيتا كارم»... هذه الأنواع العديدة من العلاقات.. كان لها عندنا معنى يختلف عن معناها عندكم.. وأعتقد، بل أثق، إننا لو صارحنا أنفسنا ورأيناكم على حقيقتكم لكنت الآن في بيتي الذي احتللته أنت ولكنت أنت في مكان آخر بعيد... بعيد جداً عن فلسطين...

وقلب الأسير الإسرائيلي يديه ببراءة مصطنعة وقال:

ـ وما شأننا نحن بهذه الأمور؟.. إنها أمور سياسية لا دخل لنا فيها.. يكفي أن نحتفل، أنت وأنا، بلقائنا بعد هذه السنوات الطوال من البعد والفراق...

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

ـ نحتفل؟.. لقد احتلفنا اليوم كما تعلم بهذا اللقاء.. إن صوت المدافع والرشاشات لم يتوقف إلا منذ ساعات قليلة.. فهل تريد احتفالاً أعظم من هذا الاحتفال؟..

ـ ابراهيم.. مرة أخرى أقول لك.. هذه أمور تخص الآخرين من قومي وقومك.. المهم اننا قد التقينا بعد فراق دام زمناً طويلاً.. وعلينا أن..

وقاطعه ابراهيم قائلاً:

ـ ولماذا كان ذلك الفراق يا ترى؟..

ـ إنها تلك الأحداث التي تعرفها..

ـ أجل.. تلك الأحداث التي أعرفها حق المعرفة.. لأنني عشتها.. عشتها تشرداً.. وتنقلاً من مكان إلى آخر.. عشتها جوعاً وفاقة.. وانتظاراً لأن تتكرم وكالة الإغاثة علي وعلى شعبي بما لا يغني ولا يسمن من الغذاء.. لا قل يا يوري.. ما الذي جاء بك إلى هنا؟..

ـ لقد قلت لك.. إنها الأوامر.. فأنا، كما ترى، مجند في جيش الدفاع الإسرائيلي..

ـ جيش الدفاع؟.. رباه ما أضخم هذه الأكذوبة.. الدفاع ضد من؟..

ـ إن دولتنا تعيش وسط أخطار عظيمة.. هذا شيء معروف..

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

ـ ومن الذي صنع هذه الأخطار وتسبب فيها؟..

ـ إنكم معشر العرب، تكرهوننا...

ـ نكرهكم؟.. إنك لم تقل التعبير المناسب يا ابن حاييم.. ومع هذا فإنني أسألك... لماذا نكرهكم؟.. هل قالوا لك، عندكم، لماذا؟..

ـ لقد خضتم ضدنا ثلاث حروب في أقل من عشرين سنة و...

ـ خضنا ضدكم؟.. هل نسيت، على ما أرى، أن حروبكم كانت عدواناً منكم علينا... لتأخذوا ما لا تملكون... وتستولوا على بلدنا وأرضنا وتشردونا من غير ذنب ولا جريرة؟.. أنسيت يا ترى، أننا قد آويناكم.. وأدخلناكم بلادنا... وعاملناكم كفلسطينيين.. وأبيتم إلا أن تقولوا أنكم إسرائيليون؟... هل تذكر، يا ابن حاييم، نقاشي معك تلك الأيام، حين قلت لك أنك فلسطيني وقلت أنت أنك إسرائيلي...

ـ إن إسرائيل هي أرض ميعادنا...

ـ من قال ذلك؟.. وإلى أي حق استندتم؟.. أتراك تصدق تلك الأكاذيب التي يرددها زعماؤكم؟.. إنني لا أريد أن ألقي عليك محاضرة في التاريخ.. ولكنني أقول لك باختصار أننا، نحن العرب، أقمنا في فلسطين ألفين من

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

السنين.. ولم يزد مجموع مدة إقامتكم فيها، معشر اليهود، عن سبعين سنة متقطعة.. ليس غير..

ـ ابراهيم.. إنك تذهب بعيداً عن حديثك.. نحن.. أعني أنت وأنا.. لا شأن لنا بذلك.. إننا صديقان قديمان.. هذا كل ما يهمني.. ولعلك تبعد عني هذا السلاح الذي تشهره عليّ...

ـ سلاحي؟.. لا.. لا يا يوري.. إنني لن ألقي سلاحي.. ولن أبعده عنك.. ولا عن قومك إلى أن تثوبوا إلى رشدكم.. وتعرفوا الحق وتعترفوا به...

ـ أنت إذن لن تساعدني؟..

ـ فيم تريدني أن أساعدك؟..

ـ إنك لا ترضى لصديقك القديم أن يظل كما هو الآن.. هل يرضيك أن تراني في هذه الحالة وهذا الوشم الذي نقشناه على ذراعينا يدل على صداقتنا الدائمة؟.. لقد خيبت أملي يا ابراهيم.. فلقد استبشرت خيراً عندما تعرفنا على بعضنا.. وقلت في نفسي إنك لن تلبث أن تساعدني... وتنقذني.. فنحن صديقان.. بل إن ذهني اتجه إلى أختي راشيل.. فقلت في نفسي أنها سوف تكون في منتهى السعادة عندما تعلم بأن صديقنا القديم ابراهيم قد فك أساري..

ـ أختك راشيل؟.. حقاً.. أين هي الآن؟..

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

ـ إنها مجندة في جيش الدفاع الإسرائيلي مثلي..

ـ مجندة؟.. وتحمل السلاح؟.. هه؟.. هل تبينت الآن من أنتم؟.. أنتم مجموعة من القتلة، يستوي في ذلك رجالكم ونساؤكم... وإذا كان يهمك أن تدخل السعادة في نفس أختك حين تقول لها أنني قد ساعدتك على الهرب.. فأنا، أيضاً، يهمني أن أدخل السعادة في نفس أمي حين أقول لها أنني قد ساهمت في المعركة التي أُسِرت ورفاقك فيها.. وأنني قمت على حراستكم كيلا تهربوا...

وبدت على وجه الأسير الإسرائيلي خيبة أمل واضحة، فلقد ظن ـ على ما يبدو ـ أن مخاطبة هذا «العربي» بالعاطفة يمكن أن تؤثر فيه ـ إذ قيل له في الأرض المحتلة أن العرب قوم عاطفيون ـ ففوجيء بهذه الصلابة، والإصرار على الموقف، فتبدد أمله، وعاد الذعر يتملكه من جديد..

واستطرد ابراهيم في كلامه:

ـ إنك لا تدري يا يوري كم أنا سعيد فعلاً بهذا اللقاء.. ولكن على طريقتي أنا وليس على طريقتك أنت.. إنك لا تصدق أنني ظللت أحلم بهذا اللقاء، معك أنت بالذات، سنوات وسنوات... وأتخيل ما سوف يدور بيننا من حديث.. لكي أروي لك الأهوال التي عشتها أنا وشعبي، بينما أنتم تغتصبون بلدنا.. ولا تكتفون بذلك.. بل وتطاردوننا بالعدوان في كل مكان...

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

ونهض يوري واقفاً، ومد يديه نحو صديقه القديم وكأنه يستعطفه، فنهض ابراهيم بدوره وقد أحكم الإمساك بسلاحه متهيئاً لإطلاق النار في أية لحظة..

وقال يوري بلهجة توسل:

ـ ابراهيم.. إنني لا أصدق ما أراه.. لا أصدق أنك تشهر السلاح في وجهي..

ـ سيظل سلاحي وسلاح شعبي كله مشهراً في وجهك ووجه قومك إلى أن يعود الحق إلى نصابه..

وتقدم يوري خطوة وهو يقول بصوت متهدج:

ـ ابراهيم.. أرجوك.. ساعدني.. إن وجودي أو عدمه سواء.. ولكن بوسعك أن تنقذ حياتي..

ـ كأنك بك تطلب مني أن أخون قضيتي.. وشعبي.. وآمالي..

ـ ابراهيم..

ـ مكانك..

ـ ابراهيم..

ـ مكانك.. خطوة أخرى وأطلق الرصاص..

ومع أن الإسرائيلي قد لمس في لهجة ابراهيم صلابة وتصميماً واضحين، فإنه واصل التقدم ببطء وهو يمد ذراعيه

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

بحركة تمثيلية مستعطفة، حتى باتت المسافة بين الإثنين لا تزيد عن خطوات ثلاث..

ووضع يوري يديه على صدره وكأنه يريد أن يؤكد كل كلمة يقولها:

ـ إنني ما زلت متمسكاً بصداقتنا القديمة رغم كل ما قلت...

ـ لقد فات الأوان.. فات الأوان كثيراً يا ابن حاييم..

وفي مثل لمح البصر، لمع في يد يوري خنجر قصير، كان يخفيه تحت إبطه برباط ووثب على ابراهيم يريد أن يطعنه به، ولكن حركة واحدة من أصبع ابراهيم كانت كافية لأن ينطلق سيل من الرصاص مزق الإسرائيلي تمزيقاً، وجعل رفاقه ينهضون مذعورين..

وارتسم الذهول الشديد على وجه يوري وهو يتهاوى على الأرض، والدم ينبثق من جسمه، وكأنه لم يكن يتوقع هذه النتيجة، وقال بصوت مختنق:

ـ قتلتني.. قتلتني.. يا.. ابراهيم..

ورد ابراهيم ببطء وهو يحدق في الإسرائيلي الغارق في دمائه:

ـ وأنت.. ماذا كنت تريد أن تصنع بي ومعك هذا الخنجر؟..

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

وراح ابراهيم ينقل بصره بين سلاحه، وبين القتيل، كأنما لا يصدق ما جرى، بينما كانت عيون الأسرى الآخرين معلقة على فوهة السلاح في ذعر هائل..

وانتبه من استغراقه تلك على أصوات بعض زملائه من المقاتلين، الذين جاؤوا يستطلعون ما جرى، فوقفوا ينظرون بدهشة إلى ابراهيم الذي تسمرت نظراته على ابراهيم القديم، صريعاً، ويده تقبض بقوة على الخنجر...

وأجاب ابراهيم على تساؤلاتهم باقتضاب:

ـ حاول أن يقتلني بهذا الخنجر الذي كان يخفيه...

ومر بأصابعه على جبينه في إعياء واستطرد:

ـ إنني خارج لأستنشق بعض الهواء.

* * *

وسار ابراهيم وهو ينقل خطواته ببطء، وسلاحه في يده، ثم جلس في مكان قصي من المخيم، وذهنه يضج بالأفكار، والذكريات.. ما بين ذاك الذي حدث قبل لحظات، وبين الأحداث البعيدة التي ما زال يذكرها، منذ طفولته، بأدق تفاصيلها...

وتناهي إليه وقع خطوات تقترب منه في عتمة الليل، وصوت نمر وهو يقول:

ـ ابراهيم.. أنت هنا؟.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

ولم يجب، بل ظل ساهماً يفكر...

وجلس نمر إلى جانبه متسائلاً:

ـ مـاذا جـرى؟.. كيف أطلقت النـار على ذلـك الإسرائيلي؟...

ـ حاول أن يقتلني.. كان يخفي خنجـراً، لعلكم لم تنتبهوا إليه عندما فتشتم الأسرى...

ـ أحسنت إذن إذ بادرته بإطلاق نارك عليه قبل أن يصل إليك..

وحاول نمر أن يرى أسارير ابراهيم الذي كان قد أحنى رأسه في وجوم، وشعر بأن عليه أن يقول شيئـاً آخر، عله يذهب بالروع الذي ظن أنـه قد أخـذ بابـراهيم بعد ذلـك الحادث، فقال:

ـ هذه هي طبيعة الأمور.. فلا تنزعج.. نحن في حالة حرب دائمة مع العدو... ولو لم تقتله لقتلك بكل تأكيد..

وظل ابراهيم صامتاً..

ـ ابراهيم.. أنت مقاتـل.. ولا يجوز لـك أن تحمّل الأمـور أكثر ممـا تحتمل.. إنـه قتال متكـافىء... وجهـاً لوجه.. فأنت لم تغدر بذلك الإسرائيلي... وقتلته دفـاعاً عن نفسك..

وزفر ابراهيم زفرة حادة، وقال بصوت خافت:

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

ـ هل عرفت من هو؟ . . .

ـ من تقصد؟ . .

ـ ذلك الإسرائيلي القتيل . .

ـ لا . . كيف لي أن أعرفه؟ . .

ـ بالعكس . . إنك تعرفه . . . وأنا أيضاً أعرفه جيداً . .

ـ ماذا تعني؟ . .

والتفت ابراهيم نحو نمر وأجابه:

ـ لقد كان القتيل هو يوري . . . ابن ذلك الرجل . . حاييم . . .

وذهل نمر، وهتف بدهشة:

ـ غير معقول . . أتتكلم جاداً؟ . . كيف عرفته؟ . . هل تبادلت معه الحديث؟ . .

ـ تبادلت معه حديثاً طويلاً . . بعد أن عرفته . . .

ـ ولكن كيف عرفته . . كيف؟ . .

ورد ابراهيم بمرارة:

ـ أتراك نسيت، يا نمر، أن على ذراعي وذراعه وشماً يمثل رسماً واحداً؟ . .

ـ . . . حقاً . . الآن فهمت . . .

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

وصمت نمر، وقد فهم كل شيء، يفكر مثلما كان ابراهيم يفكر، وهزّ رأسه وهو يقول:

ـ يا الله.. كم تجري في الدنيا من أحداث تفوق الخيال.. من كان يتوقع أن تلتقي بذلك الشاب اليهودي بعد كل تلك السنوات؟..

ـ آه لو تعلم كم تمنيت هذا اللقاء وصبوت إليه.. كنت أشعر بأن محبتي السابقة لهذا المخلوق خطأ يجب أن يصحح... ولقد قيض الله لي هذا اللقاء.. ولكنني لم أكن أتوقع، في الحقيقة، أن يكون مصرعه على يدي..

ـ تقول أنه حاول أن يقتلك..

ـ أجل.. تصوّر.. لقد حاول أن يؤثر عليّ، بادىء الأمر، بحديث معسول، عن صداقتنا المزعومة، فأرادني أن أسهل له الهرب.. وحين أبيت، فوجئت به يحاول قتلي بذلك الخنجر..

ـ إنني لم أرَ، ولم أسمع، عن شعب جبل على الغدر مثل هؤلاء الناس... ولعله أدرك حين رددته برصاصك أننا، معشر الفلسطينيين، قد بتنا أكثر وعياً من أن تخدعنا أساليبهم الغادرة.. لقد أحسنت عملاً يا ابراهيم.. أحسنت..

وقال ابراهيم بصوت خافت، وكأنه يخاطب نفسه:

ـ لو نظرت إليه بعد مصرعه لرأيت في ذراعه اليمنى

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

خنجراً.. وعلى ذراعه اليسرى وشماً... وما بين هذا الوشم وذاك الخنجر تستطيع أن تلخص حياتي كلها... حياة متشرد بـلا خطيئة، قد عرف طريقه، وعرف قضيته، وعزم على أن يستعيد حقه كاملاً، أو يموت دونه..

وصمت الإثنان... فما عاد لديهما ـ في هذا المقام ـ شيء يقال.. وراحا يحدقان في اتجـاه الأرض المغتصبة، بينما تناهت إليهم من بعيد أصوات أهازيج أبطال «الكرامة» وهم يحتفلون بانتصارهم الكبير...

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com